المعلم المبين

شرح رسالة آداب المعلمين والمتعلمين

للعلامة عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي رحمه الله



شرح واعتناء

أبو عبدالرحمن أيمن إسماعيل

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ٱلْمَعْلَمُ ٱلْمُبِينُ

شَرْحُ رِسَالْةِ آدَابِ المُعَلِّمِينَ والمُتَعَلِّمِينَ

للعلَّامة عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي"رحمه الله".

(ت: 1376هـ)

(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

(البقرة:32)

شرحها: أبو عبد الرحمن .

أيمن إسماعيل

"رَبِّ اغفر لي، ولوالدي، ولكلِ من له فضلٌ عليَّ"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ، وومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، ، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:102].

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:1]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب:70 - 71]

أما بعد

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه، وآله وسلم، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل محدثه بدعة، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار.

أما بعد

فلا شك أنَّ طَلَبَ العِلْمِ وَالتَّفَقُّهُ في الدِّينِ فَضِيلَةٌ عَظِيمَةٌ ومنّةٌ جليلة ؛ فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتعالى قد رَفَعَ قَدْرَ العُلَمَاءِ، وأَنْزَلَهُمْ أَعْظَمَ مَنْزِلَةٍ، حِينَ اسْتَشْهَدَهُمْ عَلَى أَعْظَمِ شَهَادَةٍ بَعْدَ أَنْ شَهِدَ تعالى بِهَا، وَأَشْهَدَ عليها مَلَائِكَتَهُ، فَقَالَ تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِمًا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(آل عمران:18).

وَأَخْبَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ العُلَمَاءَ هُمُ الذينَ يقدِرون الله تعالى حق قدره ، ويَخْشَوْنَ اللهَ تعالى حَقَ خَشْيَتِهِ، فَقَالَ تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾(فاطر:28).

قال ابن كثير:

أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلمَّا كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم ، والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .[1]

قال ابن رجب:

العلم النافع هو ما باشر القلب ، فأوقِرْ فيه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنتْ هذه الأشياء في القلب خشع، فخشعتْ الجوارحُ كلها تبعًا لخشوعه.[1]

[1] انظر: تفسير القرآن العظيم (6/ 482).

بَلْ إنَّ الله تعالى لَمْ يَأْمُر النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ بِالازْدِيَادِ مِنْ شَيْءٍ إلَّا مِنَ العِلْمِ، فَقَالَ تعالى على لسان نبيّه ﷺ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه:114)
ولا شك أنَّ طلب العلم من الأهمية والفضيلة بمكان ؛ فقد أبان الله - تعالى - فضيلة العلم وأهله في كتابه في مواطن كثيرة ، بل أنزله تعالى منزلة الجهاد ، الذي هو ذروة سَنام الإسلام ؛

فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ **[التوبة: 122]**.

فقد دلَّت الآية على أنَّ طلب العلم لا يقلُّ أهميةً عن طلب الجهاد ؛ ذلك أنَّ الله - تعالى- لمَّا استنهض الأمة في النفير للجهاد أمرهم بالإبقاء على طائفة منهم لملازمة مجالس العلم ، ليكونوا أوعية للعلم الشرعي فينتفع بهم أقوامهم إذا رجعوا إليهم ، وبذلك تبقى الأمة محفوظة بمجاهديها الذين يحفظون لها بيضتها من مكر أهل الشرك ، وبطلابها الذين يحفظون لها حياض شرعها ممن يلغون فيه ؛ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وبذلك يتحقق موعود الله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ)(الحجر:9)
وكذلك فإنَّ السُّنة قد أبانت فضائل طلب العلم :

ففي الصحيحين عن مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِى سُفْيَانَ - رضي الله عنهما- قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَقُولُ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ».[2]

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية :

وكل من أراد الله تعالى به خيراً لا بد أن يفقِّهه في الدِين، فمن لم يُفقِّهه في الدين لم يرد الله تعالى به خيراً، والدِين: ما بعث اللهُ تعالى به رسولَه ﷺ ، وهو ما يجب على المرء التصديق به، والعمل به.[3]

قال ابن حجر :

ومفهوم الحديث أنَّ من لم يتفقَّه في الدِين، أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حُرم الخير؛ لأنَّ من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيهًا ولا طالب فقه، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به خيرًا ، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقّه في الدين على سائر العلوم .[4]

نقول وبالله تعالى نستعين:

فقد شرعتُ من خلال شرح هذه الرسالة المباركة ، رسالة العلَّامة السِعدي ، رحمه الله تعالى ، رسالة " آداب المعلّمين والمتعلّمين"، في بيان جملة من الآداب الشرعية والأخلاق المرعية التي يحتاج إليها طالب العلم ، مع ذكر جملة من أخبار السلف لتقرّب معاني تلك الآداب لطلاب العلم.

---

[1] انظر: ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء(ص/19)
[2] أخرجه البخاري(71)ومسلم(1037)
[3] انظر :مجموع الفتاوى(80/28)
[4] انظر: فتح الباري (1/ 165)

ولا بد بين يدي هذه الورقات أن أبوء بأني ما اجترأتُ على الكتابة في هذا الفن إلَّا رغبة مني في أنْ يتحلَّى طلابُ العلم بالآداب التي حثَّ عليها الشرع ، فإن أصبتُ فمِنَ الله تعالى ، وإن أخطأتُ فأنا أضع خطئي بين يدي شيوخي وإخوتي بغية إرشادي وتعليمي ما لم أكن أعلم.

ولا خفاء أنَّه من المَدَارك المهمة في باب التصنيف ، عَزْوُ الفوائد والمسائل والنكات إلى أربابها ؛ تبرّؤاً من انتحال المرء ما ليس له، وترفّعاً عن أن يكون كلابس ثوبي زور ، لهذا ترى جميع مسائل هذا الكتاب معزوّة إلى أصحابها بحروفها ، وهذه قاعدتنا فيما جمعناه ونجمعه.[1]

قال أبو عبيد: "مِن شكْرِ العلم أنْ تستفيد الشيء فإذا ذُكِرَ، قلتَ: خفي علي كذا وكذا ولم يكن لي به علم حتى أفادني فلانٌ فيه كذا وكذا، فهذا شكر العلم" .[2]

أقول:

وهذا جهد المُقِلّ ، قد أنفقتُ فيه جُهدي ، وبذلت فيه وسعي ، وقد سطَّرته وأنا أعلم أنَّه عمل بشري يعتريه الخطأ والتقصير، وهذا المعنى قد ذكره الله عز وجل- في قوله تعالى" وَلَوْ كَانَ من عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " (النساء/82)

فكل ما كان من عند غير الله تعالى فإنه لا يسلم من السهو والخطأ ،وفي هذا المعنى يقول عبدُ الله بن مسعود - رضى الله عنه- لما سئل عن رجل تزوَّج امرأة ، ولم يفرض لها صداقاً ، ولم يدخل بها حتى مات ، قال : " فَإِنِّي أَقُولُ فِيهَا إِنَّ لَهَا صَدَاقًا كَصَدَاقِ نِسَائِهَا، لَا وَكْسَ، وَلَا شَطَطَ ، وَإِنَّ لَهَا الْمِيرَاثَ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، فَإِنْ يَكُ صَوَابًا فَمِنَ اللَّهِ تعالى، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ " .[3]

فاللهمَّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .[4]

اللهم ربَّنا : اهدنا إلى خير الأقوال والأخلاق، والأفعال والأرزاق ، لا يَهدي لخيرها إلَّا أنت ، واصرف عنَّا سيئها ، لا يصرف عنَّا سيئها إلَّا أنت .

اللهم ربنا : أتمم لنا نورنا ، ودبّر بلطفك أمورنا..

اللهم ربنا: سدِّد خُطانا ، واغفر خطايانا ، حرِّر أقصانا ، وفِكَّ أسرانا ، إنك على كل شيء قدير، وأنت حسبنا ونعم النصير.

---

[1] مستلة من مقدمة "قواعد التحديث" لعلامة الشام ، الإمام القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)

[2] أسنده عنه البيهقي في "المدخل" (رقم: 705) ،والقاضي عياض في "الإلماع" (22)

[3] أخرجه أبو داود(2116)والترمذي(1145)،وقال الترمذي:"حسن صحيح" .

[4] أخرج مسلم (770) عن عائشة أم المؤمنين- رضي الله عنها- أنها سئلت بما كان نبي الله - ﷺ - يفتتح صلاته إذا قام من الليل ، فذكرتْ هذا الدعاء .

*** اللهم اجعلنا ممن أسبلتَ عليهم جلابيب الستر في الدنيا، واتصل ذلك بالعفو عن جناياته في العقبى، إنك سبحانك الفعَّال لما يريد.**

واللهَ - تعالى- أسألُ أن يجعل ما أسطِّره حُجة لي ، لا علىَّ ، وأن يجعل أفئدة من الناس تَهوي إليّ ، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه .

لقد مضيتُ وراء الركبِ ذا عَرَج ... مؤمِّلا جبر ما لاقيتُ من عَرَج

فإنْ لحقتُ بهم من بعد ما سَبقوا ... فكم لربِّ الورى في الناس من فرَجٍ

وإن ضللتُ بقَفر الأرض منقطعاً ... فما على أعرجٍ في الناس من حرجٍ

* ربنا .... أنتْ الْعَزِيزُ ، وقد مَسَّنَا العجزُ والفقرُ ، وَجِئْنَاكَ بوَرَقاتٍ من بضاعةٍ مُزْجَاةٍ ، فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ،وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، ربنا وتقبل دعاء .

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ ، فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ .

ولا يفوتني أن ألتمس من كل قارئ لهذه الورقات أن يتفضّل مشكوراً بإبداء ملاحظاته وتوجيهاته ، فإنَّ المؤمن مرآة أخيه ، والله - تعالى- في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ،والله - تعالى- أسأل أنْ يوفقنا لما فيه الصواب .

وصلَّى الله على النبيّ ﷺ ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وهذه وصية على الدرب، إليك يا طالبَ العلم :

الزم بركات المجالس :

في الصحيحين :عن أبي هُرَيرةَ - رضي الله عنه - قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ ، لَأَنْ يَرَانِي، ثُمَّ لَأَنْ يَرَانِي، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَمِثْلِهِمْ مَعَهُمْ ". [1]

قالَ النَّوَوِي: ومقصود الحديث : حثُّهم على ملازمة مجلسه الكريم ، ومشاهدته حضراً وسفراً ؛ للتأدّب بآدابه وتعلّم الشرائع وحفظها ليبلغوها، وإعلامهم أنهم سيندمون على ما فرَّطوا فيه من الزيادة من ملازمته ، ومنه قول عمر رضي الله عنه: " ألهاني عنه الصفقُ بالأسواق". [2]

قال أبو زرعة ابنُ العراقي معقّباً على قول النووي : وقد وجدنا ذلك في حق أنفسنا ومعلِّمينا ؛ فقد ندمنا على التقصير في ملازمتهم إلى وفاتهم، وتبيَّن لنا سوء الرأي في ظننا أنَّ القدْر الذي حصَّلناه عنهم كافٍ ، وفاتنا بذلك من المصالح ما لا نُحصيه ، فكيف بسيّد السادات ﷺ ؟!! [3]

*** لذا نقول :**

إنَّ طالب العلم يحتاج إلى مصابرة ومرابطة ، والصبر على طريق العلم لن يتأتَّى للطالب إلَّا إذا كان ذا يقينٍ راسخٍ في قيمة القضية التى يحملها ، فمن عرَف قيمة ما يطلب هان عليه ما يبذل.

ومِن بديع ما سطَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا المعنى قوله :

إنَّ الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت ، قال تعالى(فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) [الروم: 60] .[4]

قال الشافعي :لا يطلب أحدٌ هذا العلم بالمُلك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بِذُل النفسِ وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح.[5]

قال ابن القيم:

الصبر لِقاح البصيرة ؛ فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما ؛ قال الحسن: إذا شئتَ أن ترى بصيرًا لا صبرَ له رأيتَه ، وإذا شئتَ أن ترى صابرًا لا بصيرةَ له رأيتَه، فإذا رأيتَ صابرًا بصيرًا فذاك، قال تعالى: (وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ) **[السجدة: 24]** .[6]

*وإنْ تنظرْ في صبر الأئمة تزددْ همة :

---

[1] متفق عليه.
[2] انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج(129/8)
[3] انظر :طرح التثريب في شرح التقريب(148/7)
[4] انظر :جامع المسائل(260/3)
[5] انظر: المجموع(35/1)وتذكرة السامع والمتكلم(ص/72)
[6] انظر : الفوائد(ص/406)

قال مطرف بن عبد الله اليساري:

حدثنا مالك بن أنس قال: "كنت آتي نافعاً مولى ابن عمر رضي الله عنهما نصف النهار، ما يُظلني شيء من الشمس، وكان منزله بالنَّقِيع بالصُورِيْن، وكان فيه حدة ، فأتحيَّن خروجه ، فيخرج أَدَعُهُ ساعة، وأُريه أني لم أُرده، ثم أعرض له فأسلِّم عليه، ثم أَدَعُهُ حتى إذا دخل البِلاط"، أقول: "كيف قال ابن عمر رضي الله عنهما في كذا وكذا؟ فيقول قال: كذا وكذا، فَأَخْنس عنه".[1]

قال صالح بن أحمد بن حنبل : رأى رجل مع أَبي مِحْبَرَة، فقال له: يا أَبا عبد الله، أَنت قد بلغتَ هذا المبلغ، وأَنت إمامُ المسلمين ، فقال: " مع المِحبرة إلى المَقْبرة ".[2]

قيل للشعبي: من أين لك كل هذا العلم؟ فقال رحمه الله : بنفي الاغتمام، والسير في البلاد، وصبرٍ كصبر الحمار، وبكورٍ كبكور الغراب.[3]

***أيَّها الطالب:** أتقِنْ سماعك ، وقيّد كتابك :

فلا بد من كتابة الفوائد أولاً بأول ؛ فإنه " ما حُفِظَ فرَّ ، وما كُتِبَ قرَّ "، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «قيِّدوا العلمَ بالكتابِ» .[4]

قال النووي: المراد من علم الحديث تحقيق معاني المتون وتحقيق علم الحديث، ودوام الاعتناء به ،وتقييد ما حصَّل من نفائسه وغيرها ، فيحفظها الطالب بقلبه ويقيِّدها بالكتابة ، ثم يديم مطالعة ما كتبه ، ويتحرَّى التحقيق فيما يكتبه .[5]

قال الفربري :

كنتُ مع محمد بن إسماعيل "البخاري"بمنزله ذات ليلة؛ فأحصيتُ عليه أنه قام وأسرج، يستذكر أشياء يعلِّقها في ليلة ثماني عشرة مرة "، وحكى الحميدي عن الشافعي، أنه لما كانا بمصر كان يخرج في بعض الليالي، فإذا مصباح منزل الشافعي مُسْرَجٌ، فيصعد إليه، فإذا قرطاس ودواة، قال الحميدي : فأقول : مه يا أبا عبد الله ! فيقول : تفكّرتُ في معنى حديث - أو في مسألة - فخفتُ أن يذهب عليّ ،فأمرتُ بالمصباح، وكتبته.[6]

العلم صيدٌ والكتابة قيدُه .... قيِّد صيودك بالحبال الواثقة

---

[1] انظر : ترتيب المدارك وتقريب المسالك (132/1) ، وسير أعلام النبلاء(107/8)وتاريخ ابن عساكر (259/17)
وقوله: أَخْنَس عنه: أتخلف وأتورى عنه. (انظر: المعجم الوسيط 1/ 230. مادة: خَنَسَ).

[2] انظر : مناقب الإمام أحمد(ص/27)

[3] انظر : تذكرة الحفاظ(81/1)وسير أعلام النبلاء(300/4)

فائدة:

معنى "نفي الاغتمام":هو التخلي عن الحزن والكدر، وإبقاء النفس مرتاحة ومنشرحة القلب، فلا يعوقه عن مراده وهدفه الانشغال بالهموم السلبية التي قد تصاحب السعي أو الجهد، بل يواصل العمل بنشاط وطيب نفس.

وقد ورد في بعض الروايات: (نفي الاعتماد) :أي على النفس افتخارا وزهواً، ونسيان التوفيق الإلهي ، وهذا متّجه وحسن، والله أعلم.

[4] أخرجه الخطيب في «تاريخه» (46/10) ، كما أورده ابن عبد البر مرفوعاً في جامعه ، باب ذكر الرخصة في كتابة العلم(306/1)، وصححه الألباني بطرقه وشواهده، كما في «الصحيحة» (2026)

[5] انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج(39/1)

[6] انظر: آداب الشافعي ومناقبه (ص ٤٤ - ٤٥) ، وقوله : (مه) اسم فعل أمر مبني على السكون ،بمعنى اكفف.

فمِن الحماقة أن تصيد غزالة .... وتتركها بين البريّة طالقة.

وقالوا:

من حاز العلم وذاكره .... صلحت دنياه وآخرته

فأدم للعلم مذاكرةً .... فحياةُ العلم مذاكرته.

***أيَّها الطالب:**

لابد أنْ تعلم أنك قائم -لا محالة- على ثغر من ثغور الأمة ، فاللهَ اللهَ في نَبْلِكَ ورميك ، اصبر وصابر ، تعلَّم وعلِّم ، بلّغ آية ، واغرس سُنة ، لتضربَ بسهم في نصرة الأمّة .

قال عبد الله بن الزبيرالحميدي : والله ، لأنْ أغزو هؤلاء الذين يردُّون حديث رسول الله - ﷺ أحبُّ إليّ من أن أغزو عِدتهم من الأتراك .[1]

قال ابن القيم :تبليغ سنته إلى الأمّة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو ، لأنَّ ذلك التبليغ يفعله كثيرٌ من الناس ، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلَّا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم ، جعلنا الله – تعالى- منهم بمنِّه وكرمه .[2]

قال ابن الوزير: المحامي عَن السّنة الذاب عَن حماها كالمجاهد فِي سَبِيل الله تَعَالَى ، يُعِدُّ للْجِهَاد مَا اسْتَطَاعَ من الْآلَات وَالْعُدة وَالْقُوَّة ، كَمَا قَالَ الله سُبْحَانَهُ { وَأَعدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم من قُوَّة}.[3]

قال ابن العثيمين : في نشرك للعلم نشرًا لدين الله عزَّ وجلَّ ، فتكون من المجاهدين في سبيل الله تعالى ، لأنك تفتح القلوب بالعلم، كما يفتح المجاهد البلاد بالسلاح والإيمان .[4]

ومسك الختام مع كلام من ذهبٍ **للإمام الذهبي**:

فحق على المحدِّث أن يتورَّع في ما يؤدِّيه ، وأن يسأل أهل المعرفة والورع ليعينوه على إيضاح مروياته، ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يُزكي نقلة الأخبار ويجرِّحهم جهبذاً إلَّا بإدمان الطلب ، والفحص عن هذا الشأن ، وكثرة المذاكرة والسهر والتيقّظ والفهم ، مع التقوى والدِّين المتين والإنصاف ، والتردد إلى مجالس العلماء والتحرّي والإتقان وإلَّا تفعل؛

فدعْ عنك الكتابة ، لستَ منها ... ولو سودتَ وجهَك بالمدادِ .

فإن آنستَ يا هذا من نفسك فهماً وصدقاً ودِيناً وورعاً ، وإلَا فلا تتعنَّ ، وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب فبالله لا تتعب .

وإن عرفتَ أنك مُخلِّطٌ مُخبِّطٌ مُهْمِلٌ لحدود الله تعالى فأرحنا منك ، فبعد قليلٍ ينكشف البهرج ، وينكبُّ الزَّغل ، ولا يحيق المكر السيء إلَّا بأهله .

---

[1] انظر : ذم الكلام وأهله(71/2)،ويقصد بالأتراك لما كانوا على الكفر الأصلي.
[2] انظر : جلاء الأفهام (ص/492)
[3] انظر : إيثار الحق على الخلق (ص/24)
[4] انظر :شرح دعاء قنوت الوتر(ص/6)

فقد نصحتك ، فعلم الحديث صَلِفٌ ،فأين علم الآداب؟ وأين أهله؟ كدتُ أن لا أراهم إلَّا في كتاب، أو تحت تراب .[1]

ولله -تعالى- درُّ الشافعي إذ يقول:

إذا رَأَيْتَ شبابَ الْحَـيّ قد نـشؤوا :: لا يَحمِلُونَ قِلالَ الحِبـرِ والـوَرَقَا

وَلَا تراهم لَدَى الْأَشْيَاخ فِي حِلَقٍ :: يَعُونَ من صَالحِ الْأَخْبَارِ مَا اتَّسَقَا

فَـعَـدِّ عَـنـهُم وَدَعـهُم إنّهم هَمَجٌ :: قَـدْ بَـدّلـوا بِـعُـلُـوِّ الـهِـمَّـةِ الحُمُـقَا .[2]

وصلَّى الله على النبيِّ ﷺ ، وعلى آله وصحبه وسلم..

---

[1] انظر: تذكرة الحفاظ(10/1)
ومعنى قوله رحمه الله: "وينكبُّ الزَّغل" : ينكب: يميل ، و"الزغل": الغش.
وقوله رحمه الله: " فعلم الحديث صَلِفٌ ": صَلِفَ: ثقلت روحه، والمراد أنه علم صعب.
انظر: المعجم الوسيط (395/1) ، مادة (زغل)،ومادة (صلف)

[2] عزاه إليه ابن مفلح في" الآداب الشرعية"(213/1)وأبو عبد الله المراغي كما في "تاريخ دمشق"(343/52)

ورسالة هذه الرسالة:

هذه رسالة **" آداب المعلِّمين والمتعلِّمين"** لعلاَّمة القصيم ، الإمام أبي عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (ت 1376هـ)، رحمه الله تعالى، ورفع درجته في علِّيين ، وقد صنَّفها في ورقات معدودات، ولكنها حوت الكثير والكثير من البركات .

والجميل في هذه الرسالة كونها مختصرة، ومنها أيضًا أنها لم تُخاطب المعلِّمين فقط، ولا المتعلِّمين فقط، بل جمعتْ بين الحُسنَيين، فكانت عظيمةً في بابها.

ورسالة هذه الرسالة:

أنها تُعلِّمك الآداب، سواء كنت محاضرًا أو متلقِّيًا، معلمًا أو متعلِّمًا؛ لأنَّ المرء إذا كان اليوم متعلمًا، فهو يومًا ما –في الغالب– سيصير معلِّماً ،فيلزمه أن يقفو آداب المعلِّم كذلك، كما أنها تضع منهجاً وترسم طريقاً لطالب العلم في تحقيق مساعيه ، كما أنها لا تغفل عن الآداب الواجبة بين الأقران، وكذلك توجَّه جملة من الأسطر نحو المعلَّم في تعامله مع طلابه.

كما أنها تؤكد على أنه لا بدَّ أن يُزكِّيَ الطالب عن علمه، وزكاةُ العلم أن يُبذَل، وأن يُعلَّم الناسُ ، فهذه حياة القلوب،فأنت إذا تصدَّقتَ على رجلٍ فقير، مثلاً، فقد أحييتَ بدنه من إعواز ، أمَّا إذا تصدَّقتَ على طالب علمٍ، فعلَّمته فقد أحييتَ قلبه، وإنما حياةُ المرء بحياة قلبه، لا بحياة بدنه ، قال تعالى {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46].

كما تُعلِّمك التزام الأدب مع المعلِّم ،ولكن لاشك أنَّ رأس الأمر فيها هو خطابها للطالب في وجوب تحرِّيه للأدب مع معلِّمه ؛ فإنَّ الأدب أمرٌ عظيم، فكم مَن طلاب علمٍ بحسن أخلاقهم قد حَصَّلوا العلمَ الوفيرَ من مشايخهم، وكم من آخرين حُرِموا الكثير من العلم لمَّا أساءوا التعامل مع معلِّميهم .

فهذا أبو سلمة،عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف ،يقول الزهري: كان أبو سلمة يماري ابنَ عباس رضي الله عنهما؛ فحُرِمَ بذلك علماً كثيراً.[1]

وقد ندم أبو سلمة على ذلك وقال لَوْ رَفَقْتُ بِابْنِ عَبَّاسٍ لأَصَبْتُ مِنْهُ عِلْماً كَثِيراً .[2]

فإذا كان الطالب كثيرَ المراجعة والجدال لشيخه فإنَّ ذلك يحرِّمه العلمَ الكثير.

وما ذكرناه ما هو إلَّا مثالٌ حيٌّ يُبيِّن عدم إحسان التعامل مع المعلِّم، وكيف تكون عاقبته.

فهذا الموقف يُعلِّم المرء حُسنَ الأدب مع معلِّمه، فلا تُكثر من سؤاله، وتصبر عليه حال انشغاله

---

[1] انظر: تاريخ دمشق(229/29)والتاريخ الكبير(120/5)

فائدة:

أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري، المدني، قيل اسمه عبد الله، و قيل إسماعيل ، وقيل اسمه كنيته ، من ثقات التابعين، روى له أصحاب الكتب الستة ، توفي بالمدينة سنة (94) ، وقيل سنة (104)هـ

ينظر في ترجمته: تهذيب الكمال (33/ 370 - 376)، وتاريخ الإسلام (2/ 1198، 1199).

[2] أخرجه الدارمي في "السنن"(176/1)، وانظر: والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(209/1)

قال أَبو عُبَيْد الْقَاسِمَ بْنُ سَلَّامٍ : مَا أَتَيْتُ عَالِمًا قَطُّ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ صَبَرْتُ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيَّ، وَتَأَوَّلْتُ قَوْلَ اللهِ عز وجل: (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ)[الحجرات: 5]. [1]

وإن وجدتَه واسعَ الصدر فاغتنمْه ، وإن رأيتَه ضيّقَ الصدر لأمرٍ ما، فمِن الحكمة ألَّا تدخل عليه في وقت ضيقه.

فإن قلتَ : كيف أعرف ذلك؟

نقول:

الطالب من طول مُلازمته لمعلِّمه، يعرف مداخله ومخارجه، ويعرف من قَسَمات وجهه متى يسأله، ومتى لا يسأله ، متى يُقدِم ، متى يُحجِم.

فهذا كله من فقه التَّعامل مع المُعلِّم ، هذا هو الفقه الأكبر في التَّعامل مع المُعلِّم، الذي لو أحسَنَه المتعلِّمُ لحصَّل علماً كبيراً.

فحَرِّيٌ بكل طالب علِم أن يتعلَّم باب الأدب مع معلَّمه.

قال ابْنُ الْمُبَارَكِ: قَالَ لِي مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ:

«نَحْنُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحَدِيثِ» .[2]

ولأهمية هذا الباب، باب الأدب مع المعلِّم فقد صنَّف فيه المصنِّفون، وأكثر فيه الكاتبون .

وليعلم أنَّ التصنيف في هذا الباب - باب الأدب مع المعلِّم، والأدب في طلب العلم – على نوعين:

إما أن يُذكر هذا الباب تبعاً، أو يُصنَّف فيه قصداً.

بمعنى: إما أن يأتي بذكر الأدب مع العلم والمعلِّم كأحد الأبواب في كتاب جامع ، كما فعل ذلك محمد بن مفلح ، شمس الدين المقدسي الحنبلي (ت 763هـ)، في كتابه الماتع " الآداب الشرعية"، وإما أن يُصنَّف في هذه المسألة بعينها ، بأنْ يُخصَّص لها تصنيفٌ مستقل ،فقد صُنِّفتْ كتبٌ ورسائل في باب الأدب مع المعلِّم ، وفي طرائق الطلب وسبله.

أما عن أوائل من صنَّف خاصةً في هذا الباب:

فلعل أقدم تراث تربوي صنَّفه علماء المسلمين في هذا المضمار كتاب "العـالِم والمتعلِّم " ،للإمام أبي حنيفة النعمان المتوفَّى سنة (١٥٠ هـ) ، ورسالته إلى عثمان البتِّي ، ووصيته إلى تلميذه الإمام أبي يوسف في فقه السلوك الاجتماعي .

وكذلك ممن كتب في هذا الباب وأفرده بالذكر محمد بن سَحنون، الإمام المالكي القيرواني

[1] انظر: المجالسة وجواهر العلم(489/4)
[2] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(80/1)

(ت: 256هـ)، فقد صنَّف كتاباً سمَّاه :" آداب المعلِّمين" ، تحدَّث فيه عن سياسة الأطفال ، وتعليم الصبيان ، وتأديبهم ، كما نجد فيه شيئاً من قواعد التربية ، و آدابها عند المسلمين .[1]

ونذكر كذلك من روَّاد هذا الباب:

الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي الأندلسي المتوفَّى سنة (463هـ)،صاحب كتاب "جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته" ، وقد جاء في جزأين ، وهو كتاب مشهور لدى العلماء ، ومرجعٌ رئيس في هذا الباب.

ولا ننسى في هذا المقام تلك السلسلة التربوية المتكاملة للإمام الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المتوفَّى(463هـ) ،فهو من خير من سخَّر قلمه في هذا الباب، حيث صنَّف:

كتاب "الفقيه والمتفقِّه " ،وكتاب : "تقييد العلم"، وكتاب" الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع "، وكتاب " الرحلة في طلب الحديث".

وكذلك عبد الكريم السمعاني المروزي (ت 562هـ) الذي صنَّف كتاب:" أدب الإملاء والاستملاء".

والإمام برهان الدين الزُّرْنُوجِي(ت:593هـ)؛ الذي ضرب بسهم ماتع في هذا الدرب بكتابٍ سمَّاه "تعليم المتعلِّم في طريق التعلُّم".

وكذلك الإمام ابن عبد القوي، شمس الدين محمد بن عبد القوي المرداوي الحنبلي(ت: 669 هـ)صاحب الألفية في الآداب الشرعية ،المشهورة بـ «منظومة الآداب».

والإمام بدر الدين ،ابن أبي إسحاق إبراهيم ابن جماعة الكناني (ت: 733 هـ) صاحب كتاب

" تذكرة السامعِ والمتكلم في أَدب العالِم والمتعلِّم".

وكذلك ممن ضرب بسهم في هذا المضمار:الإمام النووي (ت: 676 هـ)في المقدِّمة البديعة الجامعة التي سطَّرها في مقدِّمة كتابه "المجموع شرح المهذَّب"، وهذه المقدِّمة قد هذَّبها ورتَّبها واختصرها العلَّامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي (1332هـ) في رسالة سمَّاها " رِسَالَةِ آدابِ الدَّارِسِ وَالمُدَرِّسِ" ، وقد شرح هذه الرسالة : الشيخ عبد الله بن صالح الفوزان.

وكذلك من رواد هذا الباب: الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت:1250 هـ) صاحب الكتاب

" أدب الطَّلَب ومنتهى الأَرَب".

---

[1] والإمام محمد بن سَحنون أحد أشهر فقهاء المذهب المالكي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وهو إمامٌ واسع الاطلاع ، عظيم النفع والبركة ،على قِلَّة سنوات عمره، لكنْ بلغ ما بلغ ، وقد مات بعد أن جاوز الخمسين بعامين، ولكنَّ العلم لا يُقاس بالسنوات، إنما هو رزق يُفتح للعبد بحسن نيته ، وصفاء سريرته .
وقد كان آية في الحفظ ، ومن عجيب ما ذُكر في سيرته أنه كانت له سُرِّية ، يقال لها أم قدام ، فكان عندها يوماً، وقد شغل في تأليف كتاب إلى الليل، فحضر الطعام، فاستأذنته،
فقال لها: أنا مشغول الساعة ، فلمَّا طال عليها، جعلت تلقمه الطعام، حتى أتت عليه ، وتمادى هو على ما هو فيه إلى أن أذن لصلاة الصبح، فقال: شغلنا عنك الليلة يا أم قدام ، هاتِ ما عندك ، فقالت : والله يا سيدي ، ألقمته لك ،فقال لها: ما شعرتُ بذلك.
انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (217/4)

نأتي إلى هذه الرسالة المباركة:

يقول الشيخ رحمة الله عليه:

"يتعيّن على أهل العلم من المعلِّمين والمتعلِّمين أن يجعلوا أساس أمرهم الذي يبنون عليه حركاتهم وسكناتهم: الإخلاص الكامل ،والتقرُّب إلى الله تعالى بهذه العبادة، التي هي من أجلِّ العبادات وأكملها".

ثم يقول رحمه الله : "ويجب أن يتفقَّدوا هذا الأصل في كل دقيقٍ وجليلٍ من أمرهم".

الإمام رحمة الله تعالى عليه قد بدأ بالتنصيص على أهمية الإخلاص، وبناه على أمرين:

"التأسيس والتأكيد" ، فإن قيل: فما الفرق بين التأسيس والتأكيد؟

التأسيس: أنه يقول لك: "احرص على الإخلاص في علمك، في تعلّمك، في سعيك إلى مجالس العلم"، هذا هو التأسيس.

ثم ذكر التوكيد ، وذلك بالتأكيد على أنه لا يكفي مجرد وضع نية الإخلاص ، بل لابد من تفقّد وتحسس هذا الأصل، وذلك بمراجعة قلبك من حين إلى آخر.

وهذا المعنى الذي هو عدم الاكتفاء بتحصيل الخير ، بل تفقّده ، وسؤال الثبات عليه هو شأن سادة البشر ، من النبيين والمرسلين ، كما ورد في قول إبراهيم عليه السلام(رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ)(إبراهيم:35)،

وفي قول يوسف عليه السلام (رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ)(يوسف:101)

وفي حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّها قَالَتْ: دَعَوَاتٌ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَا: " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ "، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُكْثِرُ تَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ؟ فَقَالَ:

" إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عز وجل، فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ ".[1]

إذَن فالمصنِّف بدأ بذِكْر مسألة الإخلاص والتأكيد عليها :

فيجب على كل طالب علم أن يراقب إخلاصه لربِّه تبارك وتعالى في نفْسه، في أنفاسه، في حركاته، في لفظه ولحظه، وأن يطرد عن قلبه الالتفات لقول البشر ، ذمّاً ، أو ثناءً ، فلا يحزنه ذمُّهم، ولا يسعى إلى تحصيل مدحهم ، بل دوماً يسعى في طرح هذا الباب من حساباته ؛ فإنَّ

---

[1] أخرجه أحمد (25111) والنَّسَائي في «الكبرى» (7690)،وهو حديث صحيح بشواهده.
وقريب من هذا المعنى وأصله قد رواه مسلم (2654) عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:« إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ ».

هذا من أكثر ما يريح القلب ويصلحه ، مع الإقرار والاعتراف أنَّ هذا الباب من أصعب الأمور على القلب، كما قال سفيان الثوري :"ما عالجتُ شيئًا أشد عليَّ من نيتي ؛ لأنها تتقلَّب عليَّ ".[1]

وذلك لأنَّ النفس بطبعها قد جُبلتْ على حبِّ الثناء والظهور والمدح والتقديم ، فطالِبُ العلمِ لابد أن يجاهد نفسه في ذلك ، فمَن جاهد وثابر رُزِق هداية القلب ، قال تعالى (وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ 69) (العنكبوت:69) .

وقد رُوِي عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ:

"يَا أَبَا بَكْرٍ! لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ "، قَالَ: "قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ".[2]

هل تتخيل مدى خطورة هذا للأمر ؟

أعطيك مثالاً للتقريب فقط :لو أنَّ نملةً دخلتْ إلى بيتك، هل ستشعر بها؟ لا، والله لن تشعر بها ،فوالله إنَّ دخول الرياء إلى القلب أشد خفاءً من دبيب النمل ؛ فإنَّ الرياء يقع في العمل من حيث لا يدري به صاحبه، كما لا يدري الإنسان بدبيب النمل، فاللهم إنَّا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

والناس في هذا الباب على أصناف:

منهم من يعمل لغير الله تعالى ، نعوذ بالله تعالى من الخذلان ....

ومنهم من يُخلص علمه وعمله لله عزوجل ، فيجرِّد نفسه من حظوظها ورغباتها ابتغاء وجه الله تعالى.

وما بين هؤلاء وهؤلاء صنفٌ ثالث ، وهم من يتركون العمل خشية أن يقعوا في الرياء ، حيث يُلبِّس عليهم الشيطان، فيحملهم على ترك الطاعات خشية مراءة الناس .

وترْك بعض الأعمال الصالحة من باب مخافة الرياء هو في الحقيقة من تلبيس الشيطان، وهو حِبالة من حِبالات إبليس، وقد عدَّه أهل العلم من الرياء.

قال محمد بن عبد ربه : سمعتُ الفضيل بن عياض يقول: ترْك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله تعالى منهما .[3]

---

[1] انظر: جامع العلوم والحكم(ص:12)

[2] أخرجه أحمد (19606)وأبويعلى(60)، وفي إسناده ليثُ بنُ أبي سُلَيم، والجمهور على أنه ضعيف، وشيخه فيه أبو محمد:" لا يُعرف".

[3] انظر: شعب الإيمان (9/ 184)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

ومن كان له وردٌ مشروع من صلاة الضحى ، أو قيام ليل أو غير ذلك فإنه يصلِّيه حيث كان، ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس، إذا علم الله -تعالى- من قلبه أنه يفعله سرًّا لله تعالى ، مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص . [1]

فلا ينبغي أن يعزف طالب العلم عن الطلب وينقطع عنه؛ بحجة أنَّ نيته غير خالصة ،

فهذا مدخلٌ من مداخل الشيطان ليصرِف الطالب عن بركات العلم الشرعي، بل الواجب على طالب العلم أن يمضي في طريق الطلب ، ويتدرج في سلم العلم، ويجاهد نفسه في تصحيح النية في أول الطلب وأثناء الطلب ، بل في جميع مراحله، وهذه المجاهدة تعين الطالب على الإخلاص وإرادة وجه الله عز وجل.

ومع دوام المجاهدة والاجتهاد في طلب الإخلاص يوفَّق العبد للنيّة الصالحة وحسن العمل ؛ لأنَّ العلم ببركته يربّي على الإخلاص.

قال مُجَاهِدٌ : «طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ وَمَا لَنَا فِيهِ كَبِيرُ نِيَّةٍ، ثُمَّ رَزَقَ اللَّهُ بَعْدُ فِيهِ النِّيَّةَ».[2]

فالموفَّق من يجاهد نفسه في تحصيل الإخلاص، ولا يترك طاعة من الطاعات خشية أن يقال: "هذا مراءٍ"، بل يُقدِم على الطاعات ويجاهد نفسه في الله تبارك وتعالى، ومع ذلك لا يأمن على نفسه من النفاق ، كما قال الحسن البصري : ما خاف النفاقَ إلَّا مؤمنٌ ،ولا أمِنه إلَّا منافقٌ .[3]

وكون المرء دوماً يخشى النفاق ويراجع نفسه فهذا من علامات الإيمان ، وهذا من صريح الإيمان، أما المنافق فقد ركن إلى نفاقه ، وأطلق لنفسه العنان.

فالمؤمن دوماً يراجع نفسه ويجدِّد نيته، ولا يمنع أنَّ كل واحد منَّا قد يدخل في قلبه من حظوظ النفس ما لا يعلم خفاياه إلَّا الله عزوجل؛ فقد يريد أن يُمدح، أو أن يظهر، أو أن يُصفق له الناس، أو أن يُشار إليه بالبنان، فهذه من خبايا الصدور ، ومن خفايا الأنفس ، وهذا أمر قلَّما يسلم منه أحدٌ ، إلَّا من رحم الله تعالى. قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)**[الأعراف: 201].**

مسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ : طائف الرياء ، وحب الظهور ، تذَّكروا : فضل الإخلاص وخطورة الرياء، فإذا هم مبصرون، عادوا إلى إخلاصهم ، ونجوا من نزغ الشيطان.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

"لا تعلَّموا العلمَ لتصرِفوا به وجوهَ النَّاسِ إليكم، وابتغوا بقولكم ما عِند الله تعالى؛ فإنَّه يدوم ويبقى، وينفد ما سواه " .[4]

---

[1] مجموع الفتاوى (23/ 174)، ولمزيد البيان في هذا الباب يراجع : الأربعون العقدية(2/1090)للمصنف.
[2] أخرجه الدارمي(371)، وقال حسين سليم أسد: "سنده حسن"
[3] أخرجه البخاري تعليقاً ، باب : باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، قبل الحديث(48)
[4] انظر: جامع بيان العلم(1/176)

فما كان لله تعالى دام واتّصل ، وما كان للبشر انقطع واندثر(مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ)

قال سفيان الثوري:

تعلَّمنا العلم لغير الله عزوجل، فأبى أن يكون إلَّا لله تعالى ، وقال ابن المبارك: طلبنا العلم للدنيا ، فدلَّنا على ترك الدنيا .[1]

وفي هذا دلالة أنَّ المرء في أول طريقه لطلب العلم الشرعي قد يعتريه حظ النفس وشوائبها ، وهذا واردٌ في أول الطريق لغير الله تعالى، ولكنَّه كلمَّا تعلَّم المرء ازداد خشية وإخلاصاً لله تبارك وتعالى، كما قال عزوجل : "إنَّما يخشى اللهَ مِنْ عبادِه العلماءُ"، فانقلبت نيّاتهم ، وصاروا مخلصين لله تبارك وتعالى..

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال:

" مَن تَعَلَّمَ علمًا مما يُبتغَى به وجهُ الله تعالى ، لا يَتَعَلَّمُهُ إلَّا ليُصيبَ به عَرَضًا من الدنيا، لم يَجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ ".[2]

وهذا تحذيرٌ شديدٌ ووعيد أكيد لمن طلبَ العلمَ من أجلِ عَرَضٍ من أعراضِ الدنيا ،كهذا الذي يطلبُ العلمَ للمُبَاهَاةِ والمُمارَاةِ والرِّياءِ والسُّمْعَةِ.

فتراه يُحدِّث الناسَ بالعلم لا يبتغي بذلك وجهَ الله تعالى، وإنَّما ليظهرَ بين الناسِ معلومًا، ويُرى مكانُه ، وقوله ﷺ: "مَن تَعَلَّمَ علمًا مما يُبتغَى به وجهُ الله تعالى":

فيه دلالة أنَّ العلمَ الشرعيَّ الأصلُ فيه أن يكونَ الطالب متوجّهاً للهِ تبارك وتعالى، لربِّ الناس، وليس لصرفِ وجوهِ الناسِ إليه.

قال العظيم آبادي:قوله ﷺ : "عَرْفُ الجنة": بفتح عين مهملة وسكون راء مهملة، الرائحة، مبالغةٌ في تحريم الجنة ، لأنَّ من لم يجد ريح الشيء لا يتناوله قطعًا.[3]

قال ابن حجر: من المهم أيضاً معرفة آداب الشيخ والطالب: ويشتركان في: تصحيح النية، والتطهير من أعراض الدنيا، وتحسين الخُلق.[4]

قال الذهبي:

تصحيحُ النيَّةِ من طالب العلم متعيَّنٌ ، فَمَن طَلَب الحديثَ للمكاثرة، أو المفاخرة، أو ليَروِيَ، أو لِيتناوَلَ الوظائفَ، أو ليُثْنَى عليه وعلى معرفتِه: فقد خَسِر ، وإنْ طلَبَه لله تعالى ، وللعمل به،

---

[1] انظر: أدب الدين والدنيا (138).
[2] أخرجه أحمد(8457)، وأبو داود (3664)، وصحح سنده النووى في "المجموع" [1/ 23]، وفى الرياض [رقم: 1620]، وكذا صححه الذهبى في "الكبائر"(ص/120)
[3] انظر: عون المعبود(98/10)
[4] انظر: نزهة النظر(ص/146)

وللقُربةِ بكثرة الصلاة على نبيّه - ﷺ - ولنفعِ الناس: فقد فاز ، وإن كانت النيَّةُ ممزوجةً بالأمرينِ: فالحكمُ للغالب.[1]

قال سفيان الثوري: «زَيِّنُوا الْحَدِيثَ بِأَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَزَيَّنُوا بِالْحَدِيثِ».[2]

والمعنى: لا تَزَيَّنوا بـ" حدثنا " و " أخبرنا "، و"قال شيخنا " ، ونحو ذلك وتتركوا العمل بالحديث في أنفسكم ،فمَن تزيَّن بالحديث يريدُ بذلكَ رفع قدر نفسه، فالخسار الخسار، والخذلان الخذلان.

لمْ أسمُ في طلبِ الحديثِ لرفعةٍ *** أو لاجتماعِ قديمهِ وحديثِهِ

لكن إذا فاتَ المحبُّ لقاءَ مَن *** يَهوى تعلَّل باستماعِ حَديثه.[3]

قال الشافعي : وددتُ أنَّ الخلقَ تعلَّموا هذا العلم على أن لا يُنسب إليّ حرفٌ منه.[4]

لذا فإنَّ الواجب على طلَّاب العلم أن يُخلِصوا العمل لله عزوجل في طريق طلبهم للعلم الشرعي ، بل في كل نفَس من أنفاسهم ؛ فإنَّ الرياء مذموم ، فوالله ، لو لم تكن من مصيبة المرائي يوم القيامة – لو لم يُعذَّب على ريائه- إلَّا ضياع العمر بلا أجر ، هكذا هباءً منثوراً ، لكفى بها مصيبة ، (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا).

فلا بد من التأكيد على مسألة صفاء النية وسلامتها من كل شائبة ، ولو دقَّت ؛ فإنَّ المخلِص قد وجَّه قلبه شطر السماء ، لنيل رضى الله تعالى، وليس لكسب وجوه الناس ، وثنائهم عليه.

وعلى طالب العلم أن يراعي قلبه ، ولا يأمن الفتنة ،لا يأمن فتنة الرياء والتسميع .

فإذا كان إبراهيم عليه السلام الذي هدَّم الأصنام على رؤوس أصحابها هو الذي قال: {رَبِّ اجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: 35]، فمن يأمن الفتنة بعد إبراهيم عليه السلام ؟!

وإذا كان يوسف عليه السلام ، وهو النبيُّ المخلَص الذي قال تعالى في حقه(كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ)(يوسف:24) ،تراه يقول عن نفسه(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ)(يوسف:33) ، فمن يأمن الفتنة بعد يوسف عليه السلام ؟!!

لذا فإنَّ طالب العلم ، دوماً عليه لزاماً أن يدعو ربه تعالى النجاة من فتنة التسميع ، والرياء..

ودوماً عليه لزاماً أن يدعو ربَّه الثبات على الطريق ؛فليست العِلّة أن تصل إلى نهاية الطريق، وإنما العِبرة أن تظل عاضّاً عليه متمسِكاً به ، غير زائغٍ ولا متلّون، نسأل الله العفو والعافية.

---

[1] انظر: الموقظة في علم مصطلح(ص/65)
[2] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(94/1)وجامع بيان العلم وفضله(1158)
[3] هذان البيتان لجلال الدين أبي المعالي ، المعروف بـ" ابن خطيب دَارَيَّا "(ت:810)
وانظر: سلم الوصول إلى طبقات الفحول(76/2)
[4] يُنظر: المجموع للنووي(54/1)،وأدب الشافعي ومناقبه(ص/68)

تأمَّل في قوله: {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا} [النحل: 94] ،فما زلّ من ضياع، بل زلَّ وسقط بعد حصول الثبات، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

وفي حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّها قَالَتْ: دَعَوَاتٌ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَا: " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ "، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُكْثِرُ تَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ؟ فَقَالَ:

" إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عز وجل، فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ ".[1]

قال ابن مسعود رضي الله عنه: " من كان منكم مستناً فليستن بمن مات ؛ فإنَّ الحيَّ لا تُؤمن عليه الفتنة ".[2]

وهذا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، وهو في السويعات الأخيرة حال احتضاره ، كما حكاه ابنه عبد الله، :كان يقول: لا بعد، لا بعد، فقال له ابنه : يا أبة ،ما هذه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة؟ فقال: يا بنيّ ، إنَّ إبليس واقف في زاوية البيت ،وهو عاضٌّ على إصبعه ، وهو يقول: فتني يا أحمد ؟ فأقول : لا بعد ، لا بعد .[3]

لا شك أنَّ مسألةَ الإخلاص، وإصلاحَ النوايا، مسألة غاية في الخطورة ، لذا فعلى كل معلِّم ومتعلِّم ،بل على كل مسلم مراجعةِ ما في الصدور، قال تعالى (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ(9)وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ(10) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) **(العاديات:11)**،

هذا الذي في الصدور، سوف يُخرَجُ يومَ تُبلى السرائر، يُمتحَنُ ما في السرائر، فما كان لله تعالى يُقبَل، وما كان لغيره يُطرَح.

وهنا مسألة:إذا كانت النية الصالحة هي رأس مال طالب العلم ، **فماذا ينتوي الطالب حينما يسعى لطلب العلم؟**

نقول :لابد لكل من سار على طريق الطلب أن يعدّد النوايا ، كما قال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :"إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى"، فنذكر من هذه النوايا ما يلي:

---

[1] أخرجه أحمد (25111) والنَّسَائي في «الكبرى» (7690)،وهو حديث صحيح بشواهده.
وقريبٌ من هذا المعنى ، وأصله ما رواه مسلم (2654) عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:
« إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ ».

[2] أخرجه اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (130) ،وإسناده صحيح ،كما صح مثله في المعنى عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : بلفظ: " من كان مستناً فليستن بمن قد مات ؛أولئك أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم -كانوا خير هذه الأمة ،أبرّها قلوباً، وأعمقها علماً ،وأقلها تكلفاً ،قوم اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم"،أخرجه أبو نعيم في "الحلية " (305/1) وإسناده حسن.

[3] انظر: مناقب الأمام أحمد(ص/547)
هذا الأثر قد ذَكَرَهُ الذَّهَبِيّ فِي "سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلاءِ"؛ وَ كَذَا ابْنُ الجَوْزِيّ فِي "مَنَاقِبِ الإِمَامِ أَحْمَدَ"، وَ فِي "صِفَةِ الصَّفْوَةِ"؛ وَابْنُ كَثِيرٍ فِي "البِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ"؛ وَ غَيْرُهُمْ،و مَدَارُه عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْد اللهِ، وَ قَدْ تَفَرَّد بِهِ؛ ومحمد هذا لم نقف له على تَرْجَمَةً.!، وهُوَ مَجْهول الحال، فَلَمْ يُوَثِّقْهُ أَحَدٌ، وَ لَمْ يَرْوِ عَنْهُ إلاَّ اثْنَان ، وَ هُمَا:أَبُو الفَتْحِ يُوسُف بْنُ عُمَر القَوَّاسِ، وأَبُو عَبْدِ اللهِ الحَافِظ ، فَهُوَ مَجهُول الحال، لذا فهِيَ قِصَّةٌ غَرِيبَةٌ تَفَرَّدَ بِهَا روايها هذا ،واللهُ أَعْلَمُ.

أولاً:استجلاب الرحمات، والعفو عن الزلّات:فإنَّ مجالس العلم هي بركة هذا الزمان، أهلها يتعلَّمون السنن ، ويتذاكرون الآثار، يسبّحون الله تعالى ويكبّرونه ، يحمدونه ويهلّلونه ، يسألون الجنَّة ، ويستجيرون من النار، يهتدي بهم أنيسهم ، ولَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ .

ثم يأتي العطاء من الربِّ الشَّكور ،حين يقُولُ: " قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا " ، فَيَقُول المَلائكةُ :" رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ ؛ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ .»[1]

قال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد : سألتُ أبا جعفر أحمد بن حمدان: بأي نيةٍ أكتب الحديث ؟

قال : ألستم تروون أنَّ الرحمة تتنزّل عند ذكر الصالحين ؟ قلتُ : بلى ، قال : فرسول الله ﷺ رأس الصالحين .[2]

ثانياً: ينتوي رفع الجهل عن نفسه:

قال برهان الدين الزُّرْنُوجِي:

ينبغي أن ينوي المتعلِّمُ بطلب العلم رضاء الله عزوجل ، والدار الآخرة ، وإزالة الجهل عن نفسه ، وعن سائر الجهّال ، وإحياء الدِّين ، وإبقاء الإسلام؛ فإنَّ بقاء الإسلام بالعلم .[3]

قال مُهنَّا قلت: لأحمد بن حنبل: ما أفضل الأعمال؟ قال: طلب العلم لمن صحت نيّته ، قلت: وأي شيء تصحيح النية ، قال: ينوي يتواضع فيه ، وينفي عنه الجهل. [4]

فاحرص يا طالب العلم أن تنتوي حال طلبك للعلم أن تنفي الجهل عن نفسك لتتعلَّم كيف تتعبد لله تبارك وتعالى ، فتكون عبادتك لربك تعالى على بصيرة، فكم من أُناسٍ عبدوا الله تعالى على جهل، فضلّوا وأضلّوا.

فكم ترى مِن أناس يؤدّون الصلاة على غير مراد الشارع ، قومٌ من السرّاق ، يسرق أحدهم صلاته، فلا يتم ركوعها ولا سجودها ، ينْقر صلاته نَقْرَ الغراب، فهؤلاءِ يكون حالهم كحال من قيل له : "ارجع فصلِ؛ فإنك لم تصلِّ ".

وكم ترى مِن أناس يُخرجون زكاة أموالهم على غير مراد الشارع ، فتراهم مثلاً يُخرجون زكاتهم في صورة : " أجهزة طبية ، أو في شنط غذائية" ، ونحو ذلك ، فهؤلاءِ يكون حالهم كحال من قيل له :"ارجع فزكِ ؛ فإنك لم تزكِ ".

مع كون الأصل العام أنَّ الجهل هو أحد الأعذار لمن ترك واجباً ـ أو فعل محرَّماً ، ولكن هذه القاعدة ليست مطردة في حق كل جاهل ؛ فاليوم يستطيع أي شخص أن يتعلَّم كيف يزكّي ،

---

[1] متفق عليه.
[2] انظر: المحدث الفاضل :"باب النية فيه"(ص/128)
قوله: "عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة" لا أصل له مرفوع؛ إنما هو من كلام ابن عيينة، كما نص عليه :ابن حجر والسخاوي.
وقال عنه العراقي في " تخريج أحاديث الإحياء " (1929):
" ليس له أصل في الحديث المرفوع، وإنما هو قول سفيان بن عيينة ، كذا رواه ابن الجوزي في مقدّمة " صفة الصفوة "(ص/22)
[3] انظر: تعليم المتعلِّم في طريق التعلُّم(ص/40)
[4] انظر: طبقات الحنابلة(381/1)

وكيف يصلّي، ولكن للأسف، كثير من الناس يفعلون ثم يسألون: "فعلت ذلك ، فما الحكم الشرعي ؟" ، ألا سألوا إذْ لَم يعلَموا ؛ فإنَّما شفاءُ العيِّ السُّؤالُ.

الجهل ميزاب الفتن:

ألم يأتكم نبأ الخوارج الذين قتلوا من الصحابة رضي الله عنهم ، ومن أبناء الصحابة ، وظنُّوا أنهم يُحسنون صنعاً ، فلَك أن تتخيَّل أنَّ الذي قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو عبد الرحمن بن ملجم كان في أول أمره من حملة القرآن ، حتى أنَّ عمر بن الخطاب أرسله إلى مصر تلبيةً لطلب عمرو بن العاص رضي الله عنه حيث قال :- "يا أمير المؤمنين أرسل لي رجلاً قارئاً للقرآن يُقرئ أهل مصر القرآن" ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :-

"أرسلتُ إليك رجلاً ، هو عبد الرحمن بن ملجم من أهل القرآن ، آثرتك به على نفسي".[1]

نعم هذا هو عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه،محفِّظ القرآن وحافظه،لقد انقلب على عقبيه ، تأمل أنَّه لمَّا قتل علياً رضي الله عنه بسيفه المسموم كان يردد قول الله تعالى{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ }(البقرة:207)

قال عمرانُ بنُ حطَّان السدوسي وهو يمدح ابنَ مُلجِم - قبَّحه الله ـ في قتلـه أمير المؤمنين عليًا رضي اللـه عنه :

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيَ مَـــــا أَرَادَ بِهَا .... إلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رِضْوَانا.[2]

ثالثاً : أن تنتوي العلم للعمل :

فلا شك أنَّ هذه النية واحدة من أهم ما ينتويه طالب العلم ، أن ينتوي العلم ليعمل ويعبد ربَّه تعالى على بصيرة ، فإنَّه حينما تظهر ثمرات العلم النافع على عبادة المرء لربه تعالى فقد جمع بين الحسنيين ، العلم الذي زكَا به قلبه ، والعمل الذي ارتقى به أجره ، وصلحت به جوارحه ،

" فليس العلم ما سُمِعَ ودُرِسَ ، إنما العلم ما نفع وغُرِسَ".

---

[1] فلم نقف -بحسب ما تيسر من البحث- على كلام لأحد من أهل العلم صحح فيه هذا الأثر أو ضعفه، وقد ذكر الأئمة ، كالسمعاني في الأنساب، والذهبي في تاريخ الإسلام، وابن حجر في لسان الميزان -رحمهم الله-؛ هذا الأثر بصيغة التمريض المشعرة بعدم ثبوته.
والخوارج قد عرف عنهم اجتهادهم في العبادة، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، فثناء عمر -رضي الله عنه- على هذا الخارجي -لو ثبت- هو ثناء بحسب الحال الذي ظهر له، ولم يكن إذ ذاك فتنة ولا خروج ، والله أعلم.
وانظر : سير أعلام النبلاء(539/2) ولسان الميزان(140/5)

[2] قُتل عليُّ بْنُ أبي طالب رضي الله عنه على يد هذا الخارجي عبد الرحمن بْنُ مُلْجَم في 21 من شهْر رَمَضانَ سنة 40 هـ ، وذلك في المسجد الكبير بالكوفة في العراق ، وكان عليُّ بْنُ أبي طالب رضي الله عنه يبلُغ من العمر 62 أو 63 عاماً، وقد تُوُفيَ رضي الله عنه متأثراً بجراحه بعد يومين من إصابة ابن مُلْجِم على رأسه بسيف مطلي بالسموم.
ومن عجيب الأمر أنَّ العلوية النصيرية يحبون ابَن ملجم ، لأنه قتل علي بن أبي طالب وقام بتخليص الناسوت من اللاهوت ، يعني خلص الجسد من الروح الألوهية .
يعني علي بن أبي طالب حلت فيه روح الله – بزعمهم- وأن ابن ملجم خلَّص الجسد من الروح ، وأصبحت الروح هي الباقية ، والروح هنا هي الرب المعبود عندهم !!!.اللاهوت والناسوت هي مصطلحات نصرانية تعني (الروح والجسد) .
ويعتقد بعض العلوية النصيرية أنَّ عليّ بن ابي طالب -رضي الله عنه - يسكن السحاب بعد تخلصه من الجسد الذي كان يقيده ، وإذا مر بهم السحاب قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن ، ويقولون : إن الرعد صوته ، والبرق سوطه.
انظر: "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة" (393/1-399) .

قال الشاطبي:كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبُّد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، فإنْ ظهر فيه اعتبار جهة أخرى؛ فبالتبع والقصد الثاني، لا بالقصد الأول ، فإنَّ روح العلم هو العمل، وإلَّا فالعلم عارية وغير منتفعٍ به .[1]

قال سفيان الثوري :العلمُ يهتفُ بالعمل ، فإنْ أجابه وإلَّا ارتحل .[2]

قال ابن الجوزي :فالله الله في العلم بالعمل، فإنه الأصل الأكبر ، والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاته لذاتُ الدنيا وخيراتُ الآخرة، فقدم مفلسًا، على قوة الحجة عليه.[3]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية :ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه، أو كتابته ،أو روايته، بل نعني بهم : كل من كان أحق بحفظه ومعرفته ، وفهمه ظاهرًا وباطنًا ، وإتِّباعه باطنًا وظاهرًا ، وكذلك أهل القرآن .[4]

قال ابن رجب:إنَّ التَّفقُّهَ في الدِّين، والسُّؤال عن العِلم إنَّما يُحمَد إذا كان للعمل، لا لِلمراءِ والجدال.[5]

زكاة العلم العمل به:

فكما أنَّ اللهَ تعالى افترضَ على أصحابِ الأموالِ زكاةً، وتوعَّدَهم حال تركِها، فكذلك فرَضَ على أهلِ العلمِ زكاةً، وزكاةُ أهلِ العلمِ: العملُ.

قال بشر بن الحارث : يا أصحاب الحديث ،أدوا زكاة هذا الحديث ، قالوا وما زكاته؟

قال: تعملون من كل مائتي حديث بخمسة أحاديث.[6]

وقال عمرو بن قيس الملائي: " إذا بلغك شيء من الخير فاعمل به ولو مرة ، تكن من أهله ".[7]

وقال وكيع: " إذا أردتَ أن تحفظ الحديث فاعمل به "[8]

قال الحسن : كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرَى ذلك في تخشُّعه وهديه ولسانه وبصره .[9]

[9].

وتأمل قولَه تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء: ٦٦]، فدَّلت الاية أنه من سبل حفظ العلم أن تعمل بما تتعلَّم.

---

[1] انظر: الموافقات(75/1)
[2] انظر: جامع بيان العلم وفضله(ص/706)
[3] انظر: صيد الخاطر(ص/149)
[4] انظر: مجموع الفتاوى (4/ 95).
[5] انظر: جامع العلوم والحكم(ص/125)
[6] انظر: شعب الإيمان(390/3)
[7] انظر: تاريخ بغداد (163/12)
[8] أخرجه الخطيب في الجامع (1788)
[9] انظر:الزهد لعبد الله بن المبارك (ص ٢٦ رقم ٧٩) ؛وجامع بيان العلم (٦٠/١)

قال الشعبي :كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنا نستعين على طلبه بالصوم ".[1]

وهكذا شأن العلماء العاملين:

عن المرُّوذي، قال: قال لي أحمد:

"ما كتبتُ حديثاً عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلَّا وقد عملتُ به، حتى مرّ بي الحديث: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم احتجم وأعطى أبا طيبة الحجّام ديناراً ، فاحتجمتُ وأعطيتُ الحجَّام ديناراً" .[2]

{ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ }...

عن أبي بَرْزَةَ الأسْلميّ رضي الله عنه ، قال: قال رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

" لا تزُولُ قَدمَا عَبْدٍ يومَ القِيامةِ حتَّى يُسْأَلَ عن عُمُرِهِ فيما أفْناهُ، وعن عِلْمِه فِيمَ فَعلَ، وعن مَالِه من أيْنَ اكْتَسبَهُ وَفِيمَ أنْفقَهُ، وعن جِسْمِه فِيمَ أبْلاهُ". [3]

وذلك المقام لا ريب فيه ، فيه يُسأل الإنسانُ عن علمه ، ماذا صنع به، وهل عَمِل به ، أم لا ؟

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال :

يُجاءُ بالرجُلِ يَوْمَ القيامَةِ فيُلْقَى في النَّارِ ، فتَنْدلِقُ أقتابُهُ ، فيدورُ بها في النَّارِ ، كما يدورُ الحمارُ برحاهُ ، فيُطِيفُ بِهِ أهلُ النارِ ، فيقولونَ : يا فلانُ ! ما أصابَكَ ؟ ألم تكنْ تأمرُنا بالمعروفِ وتنهانا عنِ المنكَرِ ؟ فيقولُ : قَدْ كنتُ آمرُكُم بالمعروفِ ولَا آتِيهِ ، وأنهاكُم عَنِ المنكَرِ وآتِيهِ" .[4]

وعلمك حُجة لك ، أوعليك:

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:
«وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ " .[5]، وهذا الحديث وإن كان وارداً في القرآن ، فهو بلا شك يشمل كل علمٍ يتعلّمه المرء ، ولا شك أنَّ القرآن العظيم ذروة سنام كل العلوم.

وقد صنَّف الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله كتابًا بعنوان «اقتضاء العلم العمل»، تحدَّث فيه عن لزوم العمل بالعلم ، كما هو واضح من عنوانه، وهو جدير بالدراسة والمراجعة والمطالعة.

رابعاً: ينتوي نشر العلم بين الناس:

وهذا من أصلح النوايا حال طلب العلم ، فإذا كان التعلُّم لرفع الجهل هو نفعٌ ذاتي ، فإنَّ التعلُّم لتعليم الناس هو نفعٌ متعدٍّ ، فعندما تُعلِم الناسَ تكون كالطيب الذي يظل عطره غاشياً ، قال تعالى

---

[1] انظر: جامع بيان العلم وفضله (11/2)
[2] انظر: سير أعلام النبلاء(213/11)
[3] أخرجه الترمذي(2417)،وقال:"هذاحديث حسن صحيح".
[4] أخرجه البخاري (3267)،ومسلم (7592).
[5] أخرجه مسلم(223)

(أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) (الأنعام:122).

نوراً يمشي به في الناس...ينشر سُنة ، يقمع بدعة ، يهدي عاصياً ، يوقظ غافلاً...

تعليمك زكاة علمك:

قال ابن القيم:الْعَالِم كلما بذل علمه للنَّاس وأنفق مِنْهُ تَفَجَّرَتْ ينابيعه ، فازداد كَثْرَة وَقُوَّة وظهوراً ، فيكتسب بتعليمه حفظ مَا عَلِمَه ، وَيحصل لَهُ بِهِ عِلْمُ مَا لم يكن عِنْده ، وَرُبمَا تكون المسألة فِي نَفسه غير مكشوفة وَلَا خَارِجَة من حيّز الإشكال فَإِذا تكلَّم بهَا وَعلَّمهَا اتضحت لَهُ وأضاءت ، وَانْفَتح لَهُ مِنْهَا عُلُوم أُخَرُ .

وأيضاً : فَإِنَّ الْجَزَاء من جنس الْعَمَل ؛ فَكَمَا علَّم الْخلقَ من جهالتهم جزاه الله تعالى بَأنْ علَّمه من جهالته ، كَمَا فِي صَحِيح مُسلم من حَدِيث عِيَاض بن حمَار عَن النَّبِي ﷺ أَنَّه قَالَ " وإنَّ الله تعالى قَالَ: "أَنفِق أُنفق عَلَيْك" ، وَهَذَا يتَنَاوَل نَفَقَة الْعلم ،إمَّا بِلَفْظِهِ وَإِمَّا بتنبيهه ، وإشارته وفحواه.[1]

وتأمل قوله تعالى (وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ)(الحج:5)

فقد كان المرء أرضاً هامدة ، لا يعرف معروفاً ، ولا يُنكر منكراً ، لايدري ما الكتاب ولا الإيمان ،فمنَّ الله تعالى عليه وعلّمه ما لم يكن يعلم،(فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) ، فبقيت أن تتمَّ الثالثة (وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ)، فهذا هو النبت المبارك بتعليم الخلق.

ومثل هذا المعنى قد ورد في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ،أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:

" مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ عزوجل به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ تعالى بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ عزوجل ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ تعالى به فَعَلِمَ وعَلَّمَ،ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ تعالى الذي أُرْسِلْتُ بهِ ".[2]

ففي هذا الحَديثِ يضرب النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المثل باختلاف القلوب حال تلقّيها للعِلمَ والهداية ، كاختلاف الأرض حال تلقّيها للمَطَر الَّذي يَنزِلُ عليها :

1-فمنها أرضٌ خِصبةٌ تَقبَلُ الماءَ ، فتُنبِت الكلأ ، ومَثَلُها مَثَلُ العالِمِ المُتفقِّهِ في دِينِ اللهِ عزوجل، العاملِ بعِلمِه، المُعلِّمِ لغيرِه ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم هنا : "أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ"، لذا فمن فقه الإمام البخاري أنه لمَّا روى هذا الحديث ترَّجم له بقوله : " بَابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ ".

---

[1] انظر: مفتاح دار السعادة(128/1)

[2] متفق عليه.

2-ومنها أرضٌ صلبة ممسِكة للماءِ ، لا تُنبِتُ زَرعًا، ولكن يُنتفع بمائها، وذلك مَثَلُ صنف من الناسِ لهم قُلوبٌ حافظةٌ، لكنْ لَيست لهم أذهانٌ ثاقبةٌ ، فهمْ يَحفَظون العلم حتى يَجِيءَ لأخذه منهم فيُنتفَع به، وقيل : مَثَلُها مَثَلُ العالم الَّذي يعلِّمُ غيرَه، ولا يعمَلُ بعلمِه؛ فهو كالشَّمعةِ تُضيءُ لغيرِها، وتُحرِقُ نفْسَها ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم هنا: "منها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ تعالى بها النَّاسَ".

3-ومنها :أرضٌ قِيعانٌ سِباخٌ ، لا تُنبِت زَرعًا، ولا تُمسِكُ ماءً، فلم تَنتفِعْ بذلك المطَرِ في نفْسِها، ولم تَنفَعْ به غيرَها ،وهذا مثال للعالمِ الَّذي لم يَعمَلْ بعِلمِه، ولم يُعلِّمْه غيرَه ، وهو المراد بقوله ﷺ هنا : " قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً ".

وقريبٌ من هذه القسمة ما ذكره أبو قلابة بقوله:

العلماء ثلاثة : فعالِم عاش بعلمه وعاش الناسُ بعلمه، وعالِم عاش بعلمه ولم يعشْ الناسُ بعلمه، وعالِم لم يعش بعلمه ،ولم يعش الناسُ بعلمه. [1]

وكما أنَه من مصيبة المرء أنه إذا مات، لم يقف عدَّاد سيئاته ، وكان في سجل عمله سقطات جارية ، فكذلك فإنَّ من سعادته أنه إذا مات، لم تقف حسناته ، ولهذا سبل كثيرة ، يأتي على رأسها نشر العلم الشرعي النافع بين الناس وطلاب العلم خاصة ،كما قال تعالى(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ)(يس:12)

فنحن إلى يوم الناس هذا ما زلنا نقول: قال شيخ الإسلام ابن تيمية، قال النووي، قال ابن حجر، قال ابن حزم، قال الشافعي، قال أحمد ، قال أبو زرعة،....

بينما حدِّثني عن غني من أغنى أغنياء الأرض في زمان الشافعي وغيره من العلماء ، لن تجد ،وذلك لأنَّ العالِم وريث النبيِّ ﷺ ، فلما قال الله تعالى في حق النبيِّ ﷺ (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)[الشرح: 4]،

فكل من سار على درب النبي ﷺ فله نصيبٌ من هذه الآية ، والواقع والوقائع على ذلك من الشاهدين ،فاحرص أخيّ على نشر علمك بين الناس ، فإنَّ علماً يُنتفع به هو ولدٌ مخلّدٌ لصاحبه ، لا يفنى شبابه ، ولا تبلى ثيابه .

يا طالبَ العلم "انتبه":

فرق بين من تعلَّم ليُعلِّم، وبين من تعلَّم ليتصدَّر ، فالفرق شاسع.

فالأول :تعلَّم ليعلِّم الناس، فيبقى أجره مكتوبًا مسطورًا، ينتفع به يوم القيامة جبالاً من الحسنات.

أما الثاني :فإنه تعلَّم ليقال، وليتصدَّر المجالس ، حتى إذا حضر يُقدَّم ويُذكرُ اسمه، ويظهر بين الناس ، وحب الظهور يقصم الظهور.

*قفْ وتأمَّل يرحمك الله، في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

[1] انظر: حلية الأولياء(283/2)

" إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ،

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ،

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ."[1]

فائدة مهمة:

ليُعلمْ ، أنَّ كل نص من كتاب أو سنة في مدح العلم ، كقوله تعالى: (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ)(المجادلة:11)، وكقوله ﷺ :

" مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ "[2]، وفي رواية :

" مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ، أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ".[3]

فمثل هذه النصوص وغيرها كثير في مدح العلم إنما تتوجَّه إلى العلم الشرعي الموروث عن النبيّ ﷺ ،لا غير ، ومن دلائل ذلك:

ما رواه مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ - رضي الله عنهما- قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَقُولُ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ».[4]

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية : وكل من أراد الله تعالى به خيراً لا بد أن يفقِّهه في الدِين، فمن لم يُفقِّهه في الدين لم يرد الله تعالى به خيراً، والدِين: ما بعث اللهُ تعالى به رسولَه ﷺ ، وهو ما يجب على المرء التصديق به، والعمل به.[5]

قال ابن حجر :

---

[1] أخرجه مسلم(1905)
[2] أخرجه مسلم (2699)
[3] أخرجه أحمد(21715)والترمذي (2682) ،وصححه الألباني.
وقد أورد البخاري بعضه في "صحيحه" في كتاب العلم ضمن عنوان باب:" العلم قبل القول والعمل"، فقال:
"وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وَرَّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة" ، وقال الحافظ في "الفتح" 1/ 160 ، معقبا : " وهو طرف من حديث أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم مصححاً من حديث أبي الدرداء، وحسنه حمزة الكناني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوَّى بها".
[4] أخرجه البخاري(71)ومسلم(1037)
[5] انظر :مجموع الفتاوى(80/28)

ومفهوم الحديث أنَّ من لم يتفقَّه في الدين، فقد حُرم الخير؛ لأنَّ من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيهًا، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به خيرًا ، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقّه في الدين على سائر العلوم . [1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه في تلقّي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه هو الذي يستحق أن يسمَّى علماً ، وما سواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً ، وإما ألَّا يكون علماً ، وإنْ سُمِّي به ،ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون في ميراث محمد صلى الله عليه وسلم.[2]

قال الأوزاعي:

العلم ما جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وما لم يجئ عن واحد منهم فليس بعلم .[3]
فقوله رحمه الله : "وما لم يجئ عن واحد منهم فليس بعلم " ،أي ليس بالعلم الممدوح لذاته ، كما هو شأن العلوم الشرعية ،وليس معنى ذلك ذم ما ليس كذلك ؛ فالطب والهندسة ليسا من علوم الشريعة ، وليسا مذمومين ، وهكذا سائر العلوم النافعة ، لكنَّ المراد هنا تبيين أنَّ الوارد فيه نصوص المدح إنما هي العلوم الشرعية وعلماء الشريعة لا غير .

وهنا مسألة مهمة تحتاج إلى توضيح، وهي الفرق بين الشرك في النيَّات ، والتشريك في العمل:

فلا شك أنَّ الإخلاص: أن تتوجَّه بالعمل لله تعالى ، خالصاً لوجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته، لا تريد من الناس أجرًا ولا شكورًا ، أما الشرك في النية، فهي أن تكون النية ليست خالصة لله تعالى .

وبينهما ما يسمَّى التشريك في النية :

والمعنى: أن يعمل المرء العمل الشرعي مما يبتغي فيه وجه لله تعالى، قاصداً فيه وجه الله تعالى ، وَلِتحصيل نفع دنيوي، والتشريك في النية - مع كونه جائزاً ، لكنه ليس فاضلاً، بل مفضول ،ومثاله: كأن يسعى المرء إلى دراسة علوم شرعية زيادةً في العلم ورفعةً في الآخرة ، وليحصِّل شهادة يزداد بها راتبه في العمل.

مثال آخر: رجل يسمع عن مسابقة لتحفيظ القرآن ولها جائزة مالية، فدخلها من أجل مراجعة حفظه من القرآن ، والحصول على الجائزة المالية ، فهذا يدخل في مسألة التشريك في النية .

مثاله من السنة: حديث الصحيحين : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

" مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوَسِّعَ اللهُ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، وَيَنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ " ، فهنا النية مبنيّة على مقدِّمتين:

---

[1] انظر: فتح الباري (1/ 165)
[2] انظر: مجموع الفتاوى(664/10)
[3] انظر: جامع بيان العلم وفضله(617/1)

الأولى: صلة الأرحام ، وهذا مطلب شرعي ، والثانية : ما لصلة الرحم من أثر في طول العمر وزيادة الرزق ، ولهذا منافع دنيوية،فمن عمل بهذا الحديث ووصل الرحم ابتغاء وجه الله تعالى ، ورغبة في زيادة الرزق والمال ، فهذا داخل في مسألة التشريك في النية.

مثال آخر:

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه :قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَسَلَبُهُ لَهُ " (رواه الشيخان)

فلا شك أنَّ الصحابة رضي الله عنهم قد خرجوا للجهاد مخلصين النية لله تعالى ، ومع ذلك فقد جعل لهم النبي ﷺ حافزاً ، أنَّه من قتل قتيلاً فله سلبه، والسلب هو ما على المقتول من متاع.

فرع:علامات على طريق الإخلاص:

هناك علامات على الطريق يعرف بها الطالب إخلاصه؛ ، نذكر منها ما يلي:

1 - تجرده من حظوظ النفس وشهواتها :

والمعنى أن يكون طَالِبُ العِلم غايته العلم، لا الشهرة ،فلا يأنف أو يتكبر أن يكتب العلم أوينقله عن كل أحد ، ممن هو قرين له ، أو ممن هو دونه ، ولا يستنكف أن يسأل عما لا يعلم ،وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : "من رقَّ وجهه رقَّ علمه". [1]

والمعنى: من رقَّ ماء وجهه حياءً، فلم يسأل عمَّا يُشكل عليه، رقّ علمه ضعفًا ؛ فإنَّ الذي يستحيي عن السؤال، يفوته علمٌ كثير، قال النووي: من اسْتَحيَا في طلب العلم كان علمه رقيقًا؛ أي قليلاً .[2]

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها :" نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ؛ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ ".[3]

قال مجاهد : " لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ".[4]

قال الحسن : من استتر عن طلبِ العلمَ بالحياءِ لبِسَ الجهل سربالاً ، فقطَّعوا سرابيل الحياء ؛فإنه من رقَّ وجهه رقَّ علمه .[5]

---

[1] أخرجه الدارمي في مقدمة " السنن " (1/147) والبيهقي في "المدخل" (408) ، وسنده منقطع؛ لأنه من رواية حفص بن عمر عن عمر رضي الله عنه، وقد ورد كذلك من قول ابن عمر رضي الله عنهما ، رواه عنه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (3/113) والخطيب في الفقيه والمتفقه (2300) ، وفي سنده ضعف ، إنما صحت هذه العبارة من كلام عامر الشعبي، وإبراهيم النخعي والإسناد إليهما صحيح، والله أعلم.

تنبيه:

ظن بعضهم أن (رق) الثانية تصحيف عن (دق) بالدال ؛ لأنه فهم أن رقة الوجه يعني قلة خجله من السؤال عن العلم ، ولكن الجملة لا تصحيف فيها، بل رقة الوجه من الحياء، أما صلابته فهي الدالة على قلة حيائه .

[2] انظر: مقدمة المجموع(29/1)

[3] علَّقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم قبل الحديث(137)، ووصله مسلم في "صحيحه" برقم (٣٣٢)، (٦١)

[4] علَّقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم قبل الحديث(137)، ووصله أبو نعيم في «الحلية»(287/3)بإسناد صحيح على شرط البخاري . وانظر : تغليق التعليق (93/2)

[5] انظر: فتح المغيث(291/3)

ولا ينافي ذلك كون الحياء من الإيمان ، بل هو أعلى شُعب الإيمان ، وهو الحياء الشرعي المحمود الذي يقع على وجه تعظيم شعائر الدين، وأما الذي ذمَّه الشرع فهو الذي يحمل صاحبه على ترك السؤال عمَّا يعينه على فعل الواجبات وترك المحرَّمات ، وترك كل ما هو سبيل إليهما.

ولا يمنعك مثل الحياء المذموم أن تطلب العلم ، ولو كان المطلوب منه ممن هو دونك في العمر ، أوالمكانة ، وتأمل في قول الهدهد (أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)(النمل:22) ، ففيه دلالة أنه قد يوجد من العلم عند الأصاغر ما لا يوجد عند الأكابر.

ومن دلائل ذلك:

1-ما ورد في خبر الدَّجال ، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:

إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ.[1]

والشاهد هنا:

أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم الذي حدَّث عنه جماهير الصحابة رضي الله عنهم ، قد قال :

"حَدَّثَنِي تميمٌ الداري" ، وهذا معدود في مناقب تميم رضي الله عنه ؛ أنَّ النبي ﷺ روى عنه هذا الخبر، وفيه رواية الفاضل عن المفضول ، ورواية المتبوع عن تابعه .

2-عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ:

" كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم؛ يَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ" .[2]

قال النووي معلِّقاً على خبر عُمَرَ رضي الله عنه : أخذ العلم عمَّن كان عنده، ولو كان الآخذ أفضل من المأخوذ عنه, كما أخذ عمر رضي الله عنه عن هذا الأنصاري.[3]

وكم وردت في الصحيحين في مواطن كثيرة روايات جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن التابعين، كرواية سهل بن سعد الأنصاري عن مروان بن الحكم، وكذلك فقد روى جماعات من التابعين عن تابعي التابعين، ومثال هذا : عمرو بن شعيب ، على رأي من يعدُّه من أتباع التابعين ؛ فقد روى عنه أكثر من سبعين من التابعين .

قال ابن جماعة :

---

[1] أخرجه مسلم(2942)
[2] متفق عليه ، وبوَّب له البخاري باب: "بَابُ التَّنَاوُبِ فِي الْعِلْمِ".
[3] انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج(93/10)

لا يستنكف الطالب أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه، بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت، والحكمة ضآلة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، وكان جماعة من السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم.[1]

قال ابن رجب الحنبلي :

علماء الدِين كلُّهم معترفون بأنَّ الإحاطة بالعلم كله من غير شذوذ شيء منه ليس هو مرتبة أحد منهم ، ولا ادَّعاه أحدٌ من المتقدِّمين ولا من المتأخِّرين ؛ فلهذا كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم ، وإن كان صغيراً ، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم.[2]

ولا شك أنَّ للشافعي رحمه الله في هذا الباب القِدْحَ المُعلَّى:[3]

فمما ورد في تواضع الشافعي في الاستفادة من طلابه ، ما قاله الحُميدي - وهو تلميذ الشافعي - : صحبتُ الشافعيَّ من مكة إلى مصر، فكنتُ أستفيد من المسائل، وكان يستفيد مني الحديث.[4]

ويقول أحمد بن حنبل : قال لنا الشافعي : أنتم أعلم بالحديث مني ، فإذا صح عندكم الحديث، فقولوا لنا حتى آخذ به .[5]

ومما ورد عن وكيع بن الجراح، وسفيان بن عيينة، وأبي عبد الله البخاري أنهم قالوا :

لا ينبل الرجلُ من أصحاب الحديث حتى يكتب عمَّن هو فوقه ،وعمَّن هو مثله ، وعمَّن هو دونه.[6]

قال سلمة بن دينار الأعرج:كان الناس فيما مضى إذا لقي الرجلُ من هو أعلم منه، قال: "اليوم يوم غُنمي"، فيتعلَّم منه، وإذا لقي من هو مثله ، قال: " اليوم يوم مذاكرتي"، وإذا لقي من هو دونه علّمه ، ولم يَزْهُ عليه ، حتى صار هذا الزمان، فصار الرجل يعيب مَن فوقه ابتغاء أن يُنقطع منه ، حتى لا يرى الناسُ أنَّ له إليه حاجة، وإذا لقي من هو مثله لم يذاكره .[7]

---

[1] انظر:تذكرة السامع والمتكلم (ص/28)

[2] انظر: الفرق بين النصيحة والتعيير (ص/31)

[3] معنى :" القِدح المعلّى" أي الحظ الأوفر، والقِدْح - بكسر القاف وسكون الدال - في الأصل اسم السهم ،كما في «المصباح المنير»، إذ المراد له السهم الأوفر أوالنصيب والحظ الكبير.

وهنا تنبيه :

حيث كثيراً ما نسمع من يقول مثلاً: "زيدٌ له القَدَحُ المُعَلَّى في كذا"، بفتح القاف والدال ، وهذا خطأ؛ لأنَّ (القَدَح) بفتح القاف والدال إناءٌ يشرب به الماء أو نحوه ، والصواب: له القِدْحُ المُعَلَّى ، بكسر القاف وسكون الدال ،كما في المعاجم اللغويَّة، فهكذا نطقت العرب. ففي «المعجم الوسيط»: وله القِدْحُ المُعَلَّى: الحظ الأوفر (بكسر القاف وسكون الدال).

[4] انظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم(ص/59)

[5] رواه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي (ص/94)،وأبو نعيم في الحلية(106/9)وغيرهما بألفاظ مختلفة".
وانظر : سير أعلام النبلاء(33/10)،وإعلام الموقعين (٣/٥٢٩).

[6] انظر: لأخلاق الراوي وآداب السامع (326/2) ،باب: كتابة الأكابر عن الأصاغر،وتدريب الراوي(147/2)

[7] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢٧٦/٢)وجامع بيان العلم(250/2)
هذا كلام أبي حازم ، سلمة بن دينار الأعرج ، الذي توفي في خلافة أبي جعفر المنصور، عن أهل زمانه، فماذا سيقول لو رأى أهل زماننا؟ !

2-عدم تزكية المعلِّم لنفسه :

ومما يدخل كذلك في علامات الإخلاص ، الذي هو التجرّد من حظوظ النفس عدم تزكية المعلِّم لنفسه ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢].

ولا شك أنَّ مدح الإنسان لنفسه مما يقبح فعله شرعاً وعقلاً ، حيث ورد النهيَّ عن تزكية النفس من باب التأديب لها وكبْح جماحها ، ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن ، وإن كان حقا ؟ قال : مدح الرجل نفسه ، والغالب أنَّ هذا النوع من ذكر محاسن النفس إنما يُذكر للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميّز على الأقران ، وشبه ذلك.

قال الإمام مالك : إنَّ الرجلَ إذا ذهب يمدحُ نفسَه ذهب بهاؤه . [1]

قال ابن حزم : إيَّاك والامتداح ؛ فإنَّ كل من يسمعك لا يصدقك ، وإن كنتَ صادقاً ؛ بل يجعل ما سَمِعَ منك من ذلك أول معاييك. [2]

فإيَّاك إيَّاك ومدح النفس ،أو رؤية النفس..

فالأنفس لا تخلو أحوالها من حب الظهور والمدح والثناء ، فعلى طالب العلم أن يحذر من ذلك ، وعليه بهضم حظ النفس ، فمتى رأى الطالب نفسه ، كانت هذه بداية السقوط.

وإيَّاك إيَّاك أن ترى حولك أو قوتك، بل تبرَّأ من حولك وقوتك إلى حول الله تعالى وقوته .

تأمَّل في حال ضعاف النفوس ،إذا رأى الواحد منهم في نفسه نعمة ، من فهمٍ أو أثارة من علم

(قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ) ، قال تعالى (بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ)، نعم والله ، فُتن المسكين بنفسه وعقله .

قال ابن القيم:وليحذَرْ كلَّ الحذر من طغيان «أنا» و «لي» و «عندي»، فإنَّ هذه الألفاظ الثَّلاثة ابتُلِي بها إبليس وفرعون وقارونُ، فـ (أنا خيرٌ منه) لإبليس، و (لي ملك مصر) لفرعون، و (إنَّما أوتيته على علمٍ عندي) لقارون .[3]

وليست هكذا سِير أعلام الصادقين ، فما رأوا لأنفسهم شيئاً :

فترى دوماً من هدي العلماء والأئمة المخلصين أنهم ما رأوا لأنفسهم سعياً ، بل ينسبون كل خير وفضل – بعد الله تعالى- لمشايخهم وأئمتهم:

قال أحمد بن حنبل :«هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي، وما بتُّ منذ ثلاثين سنة إلَّا وأنا أدعو للشافعي».[4]

---

[1] انظر: ترتيب المدارك (67/2)
[2] انظر: الأخلاق والسير(ص/77)
[3] انظر: زاد المعاد(550/2)
[4] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (9/ 98).

قال الخطيب البغدادي :«وكذا يجب على المتعلم الاعتراف بفضل الفقيه، والإقرار بأنَّ العلم من جهته اكتسبه، وعنه أخذه».[1]

قال ابن القيم:وكان شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ قدّس الله روحه ـ يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا منِّي شيء ، ولا فيَّ شيء ،وكان كثيرًا ما يتمثَّل بهذا البيت:

أنا المكدِّي وابن المكدِّي ... وهكذا كان أبي وجدِّي.

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله، إنِّي إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقتٍ، وما أسلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا .[2]

عجيب أمر هذا العَلَم ، الذي إذا قيل شيخ الإسلام لم تنصرف الأذهان إلَّا إليه ، الذي ملأ علمه البلاد والأمصار ، ما بلغ ليل ، وتنفَّس صباح ، ومع ذلك ما رأى نفسه طرفة عين ، بل دوماً يُرجع الفضل لأهله ، الذي علَّمه ما لم يكن يعلم ، وكان فضله عليه عظيماً ، ومن هنا صار شيخاً للملة ، رضي الله عنه.

قال السعدي رحمه الله في مقدِّمة منظومته في "القواعد الفقهية":

فَهَذِهِ قَوَاعِدٌ نَظَمْتُهَا ... مِنْ كُتْبِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَدْ حَصَّلْتُهَا

جَزَاهُمُ الْمَوْلَى عَظِيمَ الأَجْرِ ... وَالْعَفْوَ مَعْ غُفْرَانِهِ وَالْبِرّ

فهذا الإمام السعدي -رحمه الله- ينظم هذه المنظومة في القواعد الفقهية، ثم ينسب الفضل فيها إلى أهل العلم ؛ اعترافًا بعظيم فضلهم، وكريم منتهم عليه.

وعلى دربهم الشيخ ابن عثيمين، يقول في منظومته:

وهَاكَ مِنْ هذِي الأصولِ جُمَلا ... أرجُو بِها عالِ الجنَانِ نُزُلا

قواعِدًا مِنْ قولِ أَهلِ العِلْمِ ... وليس لي فيها سِوى ذا النظْمِ

وفي هذا بيان للتجرُّد وعدم رؤية النفس ، فهؤلاء الأئمة الأعلام رحمهم الله تعالى مع ما حباهم الله تعالى به من غزارة العلم ، وسيلان الذهن ، وحضور الفكر ، ومع ما وضع لهم من القبول في الأرض حتى سار علمهم في الناس مسير الليل والنهار ، فمع ذلك تراهم أجمعين لا يرون لأنفسهم شيئًا، وهذا هو نهج العلماء من ذوي الإخلاص ، فسمتهم هو حفظ الحرمة عند المكاشفة ، وتصفية الوقت من مراءاة الخلق ، وتجريد رؤية الفضل ، هذا سمتهم وهديهم ، الإخلاص لهم شعار ، والتجرّد لهم دثار .[3]

فما أجمل الاعتراف لأهل الفضل بالفضل، ورد المعروف لأهل المعروف.

---

[1] انظر: الفقيه والمتفقه (2/ 281).

[2] انظر: مدارج السالكين(199/2)

[3] **فائدة:**

الشعار" :هو الثوب الذي يلامس الجسد مباشرة، بينما "الدثار" : فهو الثوب الذي يُلبسُ فوقه ، وفي الصحيحين: من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدٍ بن عاصم رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ قال : "الْأَنْصَارُ شِعَارٌ ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ ، وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ".

والمعني: أنَّ الأنصار هم البطانة والخاصة والأصفياء ، وألصق الناس بي من سائر الناس.

فالزم غرسهم ، تحصدْ حرثهم...

طالبَ العلم بين التخلِّي والتحلِّي :

والمعنى: أنك حينما ترى نفسك، وتُعجب بكدك وبذكائك ،وترى مكانك ومكانتك ، وتقول بلسان الحال:" أطلتُ في طلب العلم سهري، وطال في جمعه طوافي وسعيي" ، فهنا تكون بداية الصعود إلى الهاوية، فعندها يتخلَّى الله تعالى عنك، ويكلك إلى نفسك وقوتك...

وطالب العلم متى استشعر منَّة الله تعالى ونعمته عليه ذابت في دواخله رواسب العُجب و حظوظ النفس ، ألم تذكر حين كنتَ أرضاً هامدة ، لا تعرف معروفاً ، ولا تُنكر منكراً ، كنتَ لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، فمنّ الله تعالى عليك وعلّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضله عليك عظيمًا.

(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (البقرة:32)

ألم يجدك ضالاً فهدى؟!

ألم يجدك جاهلاً فعلَّم ،واصطفى؟!

وكيف ترى نفسك ،وأنت على يقين أنَّ الأمر كله من الله تعالى؟! ، منه بدأ ، وإليه يعود.

«يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ».[1]

أما إذا وسدتَ الأمر إلى أهله ، وأرجعتَ الفضل إلى ربّه عزوجل، الذي منَّ سبحانه عليك من واسع فضله وعلمه ، عندها يتولّى الشكور أمرك (إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ) ،فلا تنس دوماً في كل سحَرٍ أن تناجي ربك عزوجل:

ربِّ ،أبرأ من حولي وقوتي إلى حولك وقوتك، ما لي شيء، ولا منّي شيء ، ولا فيَّ شيء، اللهم أنت عضدي ، وأنت نصيري ، بك أحولُ وبك أصولُ ، وبك أقاتلُ ...

3-قبول الحق من كل أحد:

كذلك فمن علامات الإخلاص أن يقبل طَالِبُ العِلم الحق من أي أحد ، ما دام قد جاء بالحق ،وصدَّق به ، فإنَّ الحكمة ضآلة المؤمن أنَّى وجدها فهي بغيته وغنيمته ،فلا يحمله بغضه لقائلها على رد الحق الذي أتى به ؛فإنَّ طالب العلم طالبُ حق؛ فليزمه أن يقبله من كل من جاء به

ومن دلائل ذلك:

1-قوله تعالى (وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ)(المائدة:8)

فقد دلَّت الآية على أنَّ العدل مأمور به حتى مع من نبغضهم لمخالفتم للشرع ، ومن العدل معهم ألَّا نردَّ ما معهم من الحق ، إن قالوا به.

[1] أخرجه مسلم(2577)

2-كذلك فإنَّ هذا يُستقى من فعل الله تعالى ؛ فلما برَّر المشركون فعلهم للفواحش بقولهم (وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا)(الأعراف:28)، أقرَّهم الله تعالى على قولهم : "وجدنا عليه آباءنا"، ولم يقرّهم على زعمهم الباطل : "والله أمرنا بها" !!

3-ما ورد في خبرالمسيح الدَّجال ، في إقراره بنبوة النبي ﷺ ، فقد قَالَ الدَّجال للصحابة رضي الله عنهم :" أَخْبِرُونِى عَنْ نَبِيِّ الأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ ؟

قَالُوا : قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ ، قَالَ : أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ ؟ قالوا: نَعَمْ ، قَالَ : كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ ؟ فَأَخْبَرُوه أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ ،قَالَ : " أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ" .[1]

4- إقرار الله تعالى لمَا قاله أعدائه من اليهود والنصارى، لمَّا قالوا أمراً فيه حق فقد أقرَّه الله تعالى ، كما قال الله تعالى:{وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ} (البقرة: 113)

4- الرجوع إلى الحق حال تبيّنه:

كذلك فمن أخصِّ علامات الإخلاص أنَّ المعلّم إذا أخطأ -وهذا لا يسلم من منه أحد- ثم تبيَّن له الصواب رجع إلى الحق، لأنه لن يسلم أحدٌ من الزلل مهما بلغ في علمه ، وبرع في فنّه ، وخطأ المعلِّم لن يضع من قدْره ولا يخفض من منزلته ، وكذلك اعترافه بما زلَّ فيه ، ورجوعه للصواب من القول لا منقصة فيه.

قال أبو أحمد العسكري: ولا يضع من العالِم الذي برع في علمه زلة، إن كانت على سبيل السهو والإغفال ، فإنه لم يَعْرَ من الخطأ إلَّا من عصم الله جلَّ ذكره ، وقد قالت الحكماء: "الفاضل من عُدَّتْ سقطاته".[2]

ويقول الذهبي في ترجمة قتادة :

حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدّثين ... ، كان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوّة الحفظ ....، وكان يرى القَدَر، نسأل الله العفو، ومع هذا فما توقّف أحد في صدقه وعدالته وحفظه ، ثم إنَّ الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعُلِمَ تحرّيه للحق، واتّسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحه وورعه واتّباعه، يغفر له زلَله، ولا نضلّله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك .[3]

والشاهد من ذلك:

أنه كما لا ينبغي ألَّا يُطرح العالِم لزلة وزلتين وثلاثة ، فكذلك ينبغي على العالِم إذا أخطأ أن يبوء بخطئه ، ولا يمنعه قولٌ قد قاله ، ثم رأى الحق في خلافه أن يرجع إلى الحق؛ فالرجوع إلى الحق من علامات الإخلاص ، والإنصاف والتواضع.

---

[1] أخرجه مسلم(2942)
[2] انظر: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف (ص/٦)
[3] انظر : سير أعلام النبلاء(269/5)

فإنَّ الاعتراف بالحق ليس فضيلة ، كما يقال، بل إنَّ الاعتراف بالحق فريضة .

لذا فمن دلائل إخلاص المعلِّم أن تراه رجَّاعا إلى الحق ، فلا يستنكف إذا ذَكَر أو ذُكِّر أن يصحح خطأه ، فإن لم يرجع مع علمه بخطئه ، فإنَّ هذا لا يكون إلَّا لمرضٍ في قلبه.

يقول يَحْيَى بن مَعِين : حضرْنا نُعيمَ بنَ حمَّاد بمصر ، فجعل يقرأ كتاباً من تصنيفه، قال: فقرأ ساعة ، ثم قال: حَدَّثَنَا ابْنُ المبارك، عَنِ ابْنِ عون بأحاديث ، قال يَحْيَى: فقلتُ لَهُ : ليس هَذَا عَنِ ابْنِ المبارك، فغضب، وَقَال: تردُّ عليّ؟! فقلتَ: إي والله أردُّ عليك ؛ أريد زينك، فأبى أن يرجع، فلمَّا رأيته هكذا لا يرجع ، قلتُ: لا والله ، ما سمعتَ أنتَ هَذَا من ابن المبارك قط ،

ولا سمعها ابنُ المبارك من ابن عون قط ، فغضب وغضب من كَانَ عنده من أصحاب الحديث، وقام نعيم فدخل البيت فأخرج الصحائف ، فجعل يقول وهي بيده:

أين الذين يزعمون أنَّ يَحْيَى بنَ مَعِين ليس أمير المؤمنين فِي الحديث ؟!

نعم يا أبا زَكَرِيَّا غلطتُ، وكانت صحائف، فغلطت فجعلت أكتب من حديث ابن المبارك عَنِ ابْنِ عون، وإنما روى هَذِهِ الأحاديث عَنِ ابْنِ عون غيرُ ابنِ المبارك.

قال الحافظ أَبُو نصر اليونارتي معقّباً:

ومما يدل عَلَى ديانة نُعيم وأمانته رجوعه إِلَى الحق لمَّا نُبِّه عَلَى سهوه وأُوقف عَلَى غلطه، فلم يستنكف عن قبول الصواب، إذ الرجوع إِلَى الحق خير من التمادي فِي الباطل، والمتمادي فِي الباطل لم يزدد من الصواب إلَّا بعداً. [1]

وهذا الإمام أبو حنيفة ، كان لا يقول بجواز المسح على الجوربين، ثم رجع إلى الجواز قبل موته بثلاثة أيام أو بسبعة، ومسح على جوربيه قبل مرضه، وقال : "فعلتُ ما كنتُ أنهى عنه".[2]

وهذا هو الإمام مالك ، قال عنه ابنُ وهب : سمعتُ مالكًا سُئِلَ عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء، فقال: ليس ذلك على الناس، قال: فتركته حتى خَفَّ الناس، فقلتُ له: عندنا في ذلك سنة، فقال: وماهي؟قلت: حدَّثنا الليثُ بنُ سعد وابنُ لهيعة وعمرو بن الحارث، عن يزيد بن عمرو المعافري، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن المستورد بن شداد القرشي رضي الله عنه قال: رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يدلِّك بخنصره ما بين أصابع رجليه، فقال:

إنَّ هذا الحديث حسن، وما سمعتُ به قط إلَّا الساعة، ثم سمعتُه بعد ذلك يأمر بتخليل الأصابع.[3]

---

[1] انظر: تهذيب الكمال(470/29)وتهذيب التهذيب(618/5)

[2] انظر: بدائع الصنائع(10/1)

فائدة:

قد يُستدل بكلام أبي حنيفة المذكور أعلاه على رجوعه عمَّا كان لا يقول به من المسح على الجوربين ، لكن ورد في المحيط البرهاني(70/1) :" وكان شمس الأئمة الحلواني رحمه الله يقول: هذا كلام محتمل، يُحتمل أنه كان رجوعاً إلى قولهما، ويُحتمل ألا يكون رجوعاً ، ويكون اعتذاراً إليهم، أي: إنما أخذت بقول المخالف للضرورة، فلا يثبت الرجوع بالشك". انتهى

[3] انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (1/ 31، 32)

وأما الإمام الشافعي؛ فالمثال فيه أوضح وأكبر؛ فقد اشتهر عنه القول القديم في العراق، والجديد في مصر، وقد رجع في قوله الجديد عن الكثير مما كان يقول به في قوله القديم في العراق ، إلَّا مسائل يسيرة أوصلها بعضهم إلى سبع عشرة مسألة،وأوصلها آخرون إلى نيف وثلاثين مسألة .

وانظر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد ورد زيادة في حديث السمن : "إن كان جَامِدًا فَخُذُوا، وإن كان سائِلًا فاتركوا "، قال عنها شيخ الإسلام:

تبيَّن أنَّ هذه الزيادة وقعتْ خطأ في الحديث ، وليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ،

وهذا هو الذي تبيَّن لنا ولغيرنا ، ونحن جازمون بأنَّ هذه الزيادة ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ،فلذلك رجعنا عن الإفتاء بها بعد أن كنَّا نفتي بها أولاً ؛ فإنَّ الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. [1]

وحكى الحافظ ابن حجر في ترجمة عبيد الله بن الحسن العنبري، أحد سادات أهل البصرة، وفقهائها، وعلمائها، وكان قاضيها، قال:

قال عبد الرحمن بن مهدي – تلميذه -: كنا في جنازة فسألته عن مسألة فغلط بها، فقلتُ له: أصلحك الله تعالى ، القول فيها كذا وكذا، فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه، فقال:

«إذًا أرجع وأنا صاغر؛ لأنْ أكون ذَنَباً في الحق، أحبُّ إليّ من أن أكون رأسًا في الباطل ". [2]

قال عبد الله بن بُرَيدة: "من ضنائنِ العلم الرجوع إلى الحق." [3] ،وضنائن: جمع ضنين، من البخل والشح ، كما قال الله تعالى:{وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [التكوير: 24] أي: لا يبخل بالوحي ، ولا يضن به ، فكأنّ الذي لا يرجع للحق، بخيلٌ بالعلم، أو متّهم في الأمانة.

وكان العلماء يفتون بترك الجلوس إلى من لا يرجع عن خطئه ،فقد بوَّب الخطيب البغدادي باب : فيمن غلط في رواية حديث وبُيّن له غلطه فلم يرجع عنه ، وأقام على رواية ذلك الحديث ، أنه لا يُكتب عنه ، وذكر تحته قول شعبة حيث سُئل: يا أبا بسطام ، حديث مَن يُترك؟

فقال: «من يكذب في الحديث ، ومن يكثر الغلط ، ومن يُخطئ في حديث مجتمع عليه ، فيقيم على غلطه ، ولا يرجع ". [4]

قال موسى بن هارون ، قال: سمعتُ أبي يقول: كان يزيد بن هارون يقول في مجلسه الأعظم غير مرة «حديث كذا وكذا أخطأتُ فيه». [5]

وليحذر مَن يمتنع عن الرجوع للحق أن ينزل تحت قوله تعالى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ} [البقرة: 159]

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى(516/21)
[2] انظر: تهذيب التهذيب(7/3)
[3] انظر: الحجة في بيان المحجة(579/2)
[4] انظر: الكفاية في علم الرواية(ص/145)
[5] انظر: المصدر السابق(ص/145)

ومن عواقب الإعراض عن قبول الحق بعد ما تبيّن سلبه عن صاحبه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:من أعرض عن اتِّباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه فإنَّ ذلك يورثه الجهل والضلال، حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح ، كما قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} .[1]

قال ابن القيم:قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} **(التوبة: 115)**، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بيَّن لهم فلم يقبلوا ما بيَّنه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلَّا بعد هذا البيان.[2]

5-أن تكون نية المعلِّم حصول الانتفاع للطلاب:

كذلك فمن أخصِّ علامات الإخلاص عند المعلِّم أن تكون نية المعلِّم حصول الانتفاع للطلاب ، سواءٌ في ذلك حصل لهم النفع منه أو من غيره من المعلِّمين ، فما أُفرد أحدٌ بالخير كله ، وما اجتمع الحق عند أحدٍ دون سائر الناس،

(وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)(الإسراء:20) فعلى المعلِّم إذا علِم خيراً ونفعاً للطلاب عند شيخٍ ما أن يوجههم ، ويرشدهم للجلوس إليه ، فهذه من ديانة المعلِّم وأمانته ، وعظيم نصحه لطلابه.

قال النووي في ذكره لعلامات إخلاص المعلِّم :

وليحذر كل الحذر من قَصْدُه التكثّر بكثرة المشتغلين عليه ، والمختلفين إليه ، وليحذر من كراهته قراءة أصحابه على غيره ممن يُنتفع به ، وهذه مصيبة يُبتلى بها بعض المعلِّمين الجاهلين ، وهي دلالة بيِّنة من صاحبها على سوء نيته وفساد طويته ، بل هي حجة ساطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم ؛ فإنه لو أراد الله تعالى بتعليمه لما كره ذلك ، بل قال لنفسه "أنا أردتُ الطاعة بتعليمه ، وقد حصلتْ ، وقد قصد بقراءته على غيري زيادة علم ، فلا عتب عليه.[3]

عودٌ إلى كلام المصنِّف:

قال رحمه الله: فإن درسوا ودارسوا ،أو بحثوا وناظروا، أو كتبوا وحفظوا ، أو كرَّروا دروسهم،..

ذكر المصنِّف رحمه الله السبل النافعة لتحصيل العلم بين الطلاب :

"ومنها الكتابة ومجالس المذاكرة والتكرار، وغير ذلك" :

اعلم يا طالبَ العلم،علَّمني الله تعالى ،وإيَّاك:

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى(10/10)
[2] انظر: مدارج السالكين(66/1)
[3] انظر: التبيان في آداب حملة القرآن(ص/36)

أنَّه قد عُلِم بالتتبع والاستقراء أنَّ أركان العلم أربعة ، إن لم تكن لها جامعًا ، فأمرك إلى مضيعة، **(الحرص والقلم ، المذاكرة ، الحفظ ، الاختبار)**

الركن الأول:الحرص والقلم:

فرأس مال طالب العلم الحِرْص ، والحرص هذا من توفيق الله تعالى للطالب ، أن يزرع في قلبه ووجدانه حب العلم ، فيكون تعلّقه بالعلم كلحمه ودمه .

قال سعيد بن جبير: "لا يزال الرجلُ عالماً ما تعلَّم، فإذا ترَك العلم وظنَّ أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون". [1]

قال صالح بن أحمد بن حنبل، قال: رأى رجل مع أَبي مِحْبَرَة، فقال له: يا أَبا عبد الله، أَنت قد بلغتَ هذا المبلغ، وأَنت إِمامُ المسلمين ، فقال: " مع المِحبرة إلى المَقْبرة ".[2]

قال إبراهيم الحربي: لقد صحِبتُ أحمدَ بنَ حنبل عشرين سنة: صيفاً وشتاءً، حرًّا وبرداً، ليلاً ونهاراً ، فما لقيته لَقَاةً في يوم إلَّا هو زائد عليه بالأمس .[3]

قيل للشعبي: من أين لك كل هذا العلم؟ فقال رحمه الله : بنفي الاغتمام، والسير في البلاد، وصبرٍ كصبر الحمار، وبكورٍ كبكور الغراب.[4]

فمن ظنَّ أنَّ للعلم غاية فقد بخسه قدْره ؛ فالعلم بحرٌ لا ساحل له ، ولن يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، ولن يرفع إليك طرفه إلَّا بالسعي الدؤوب في وصل القرى بالأمصار ، لجمع السنن والآثار ، ما غشى ليلٌ وانتصب نهار.

الْعِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ ... لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ

وَلَيْسَ كُلُّ الْعِلْمِ قَدْ حَوَيْتَهُ ... أَجَلْ ،وَلَا الْعُشْرَ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ

وَمَا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ ... مِمَّا عَلِمْتَ وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ .[5]

قال أبو هلال العسكري : من عرف العلم وفضله، لم يقض نهمته منه، ولم يشبع من جمعه طول عمره .[6]

---

[1] انظر: المجموع شرح المهذب(56/1)

[2] انظر : مناقب الإمام أحمد(ص/27)

[3] انظر: طبقات الحنابلة (٩٢/١)

[4] انظر : تذكرة الحفاظ(81/1)وسير أعلام النبلاء(300/4)

فائدة:

معنى "نفي الاغتمام":هو التخلي عن الحزن والكدر، وإبقاء النفس مرتاحة ومنشرحة القلب، فلا يعوقه عن مراده وهدفه الانشغال بالهموم السلبية التي قد تصاحب السعي أو الجهد، بل يواصل العمل بنشاط وطيب نفس.

وقد ورد في رواية (نفي الاعتماد) :أي على النفس افتخارا وزهواً، ونسيان التوفيق الإلهي ، والفتح الرباني، وهذا متجّه وحسن.

[5] هذه الأبيات قال عنها ابن عبد البر: "هي أحسن ما رأيتُ في آداب التعلم والتفقّه ، وهي منسوبة إلى اللؤلؤي من الرجز ، وبعضهم ينسبه إلى المأمون.

انظر: جامع بيان العلم وفضله(578/1)

[6] انظر: الحث على طلب العلم (ص/٥٩)

والنهمة بالسكون : بلوغ الهمة في الشيء ،ونهما : زادت رغبته في العلم. انظر:المصباح المنير (ص ٦٢٨ - ٦٢٩) .

قال يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: « لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ ».[1]

قال الفربري :

كنتُ مع محمد بن إسماعيل "البخاري"بمنزله ذات ليلة؛ فأحصيتُ عليه أنه قام وأسرج، يستذكر أشياء يعلِّقها في ليلة ثماني عشرة مرة "، وحكى الحميدي عن الشافعي، أنه لما كانا بمصر ، أنه كان يخرج في بعض الليالي، فإذا مصباح منزل الشافعي مُسْرَجٌ، فيصعد إليه، فإذا قرطاس ودواة، قال الحميدي : فأقول : مه يا أبا عبد الله ! فيقول : تفكّرتُ في معنى حديث - أو في مسألة - فخفتُ أن يذهب عليّ ،فأمرتُ بالمصباح، وكتبته.[2]

أخي لن تنال العلم إلَّا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاءٍ، وحرصٍ، وافتقارٍ، وغربةٍ ... وتلقينِ أستاذ، وطولِ زمان. [3]

الركن الثاني :" المذاكرة":

سواءٌ كانت مذاكرة أو مدارسة، مذاكرة على الانفراد، أو مُدارسة مع قرينٍ لك، فإذا جلس الطلاب في مدارسة العلوم ، فهذا من أنفع الوسائل التي يُحصَّل بها العلم ،حين تجلس مع أقرانك، واحدٍ ، أو أكثر ، تعيد عليهم المسألة، توضح لهم ما فهمته، وهم يوضّحون لك ما فهموه ، وهذا لا شك أنه يدخل في عموم قوله تعالى : {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الكهف:٢٩]

وعن أَبي مُوسَى رضي الله عنه، أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

"مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً".[4]

وكان من هدي صحابة النبي ﷺ ، أن يجالس بعضهم بعضاً للمدارسة والمذاكرة ، فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ:

---

[1] أخرجه مسلم(612)

فائدة:

قال العراقي في" التقييد"(ص/26) : " قلت: قد روى مسلم في كتاب الصلاة بإسناده إلى يحيى بن أبي كثير أنه قال: " لا يستطاع العلم براحة الجسم "، فقد مزجه بغير الأحاديث، ولكنه نادر جداً بخلاف البخاري، والله أعلم.

وحكى القاضي عياض عن بعض الأئمة أنه ذكر سبب إيراد مسلم لأثر يحيى بن أبي كثير وسط تلك المرفوعات، فقال:

"سببه أنَّ مسلماً - رحمه الله أعجبه حسن سياق الطرق التي ذكرها لحديث عبد الله بن عمرو ، وتلخيص مقاصدها، وما اشتملت عليه من الفوائد في الأحكام، ولا نعلم أحداً شاركه فيها ، فلما رأى ذلك أراد أن ينبّه من رغب في تحصيل الرتبة التي ينال بها معرفة مثل هذا، فقال: "طريقه أن يكثر اشتغاله، وإتعابه جسمه في الاعتناء بتحصيل العلم .

وانظر: إكمال إكمال المعلم(٣٠٢/٢)ولمزيد بيان: يراجع: " التحديث في تقريب قواعد علوم الحديث"(ص/263)للمصنف. .

[2] انظر: آداب الشافعي ومناقبه (ص ٤٤ - ٤٥) ، وقوله : (مه) اسم فعل أمر مبني على السكون بمعنى اكفف.

[3] قد اشتهر نسبة هذه الأبيات للإمام الشافعي، والأصح –والله أعلم- إنما هي لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي ،فهو شافعي المذهب ، فلعله اشتبه على من قرأ فرأى "الشافعي" في مكان ما فظن أنه للإمام الشافعي بناء على مذهب الجويني فهو شافعي.

قال ابن النجار في "ذيل تاريخ بغداد"(44/16) :قرأت على عبد الوهاب بن علي الأمين، عن عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر ابن محمد بن يوسف قال: أنشدنا أبو الحسن العبدري قال أنشدني أبو المعالي الجويني لنفسه:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبئك عن تفصيلها ببيان.....ثم ذكرها.

[4] متفق عليه.

"اطَّلَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ، فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟

قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ: نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ ".[1]

ومما ورد في سُنَّةِ مُذاكرة العلم:حديث حُذَيْفَةَ بن اليمان رضي الله عنه قَالَ: " كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي الْفِتْنَةِ ؟ [2]

ونذكر من صور المُذاكرة بين علماء السلف ما يلي:

قال عَطَاءُ بن أبي رباح:" كُنَّا نَكُونُ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما فَيُحَدِّثُنَا ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ تَذَاكَرْنَا حَدِيثَهُ، قَالَ: فَكَانَ أَبُو الزُّبَيْرِ، محمد بن مسلم بن تدرس أَحْفَظَنَا لِلْحَدِيثِ ".[3]

وعن محمد بن فضيل عن أبيه قال: "كان ابن شبرمة، والمغيرة، والحارث العكلي، والقعقاع بن يزيد وغيرهم يسمرون في الفقه"، وفي رواية:

" ... يُصلُّون العشاء الآخرة، ثم يجلسون فيتطارحون الفقه، وربما أذَّن المؤذِّن الفجر ،ولم يتفرَّقوا . [4]

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي ، فكان كثير المذاكرة له ، وسمعتُ أبي يوماً يقول: " ما صليتُ غير الفرض"، استأثرتُ بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي.[5]

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: قال أبي: "مات هشيم وأنا ابن عشرين سنة، فكنت أحفظ من حديثه ما سمعته منه وما لم أسمع"، فقلتُ له: كيف حفظتَ ما لم تسمع؟ فقال :" كنتُ أسمع أصحابنا يتذاكرون ".[6]

وقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبو زرعَة: "أبوك يحفظ ألفَ ألفِ حديثٍ"، قلتُ له: "ومَا يُدريك؟"، قال: "ذاكرتُه، فأخذتُ عليه الأبواب".[7]

قال الذهبي: فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله، وكانوا يعدُّون في ذلك المكرّر، والأثر، وفتوى التابعي، وما فسِّر، ونحو ذلك ،وإلَّا فالمتون المرفوعة القوية لا تبلغ عُشر معشار ذلك.[8]

وهذا الأثرُ فيه فائدتان:

---

[1] رواه مسلم (2901)
[2] متفق عليه.
[3] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(237/1)
[4] انظر: كتاب العلم لأبي خيثمة(ص/27) والفقيه والمتفقه(١٢٨/2) .
[5] انظر: طبقات الحنابلة(199/1)
[6] انظر: معرفة العلل والرجال(250/2)
[7] أخرجه الخطيب في كتابه تاريخ بغداد (ج6/ص90) ومن طريقه ابن الجوزي في كتابه مناقب الإمام أحمد (ص/73)
[8] انظر: سير أعلام النبلاء(187/11)

الفائدة الأولى: سُنّةُ المُذاكرةِ بين الأقران، فالقاعدة: كلُّ ما نُقلَ أنَّ فلانًا يحفظ كذا وكذا، فهو دليلٌ على المُذاكرة.

الفائدة الثانية: أنهم كانوا يَذكرون الأحاديثَ مُبَوَّبَة ، باب الطهارة، باب الصلاة، باب الصيام، باب الزكاة، وهكذا .

قال مسلم البطين: «رأيتُ أبا يحيى الأعرج -وكان عالمًا بحديث ابن عباس رضي الله عنهما- اجتمع هو وسعيد بن جبير في مسجد الكوفة ، فتذاكرا حديث ابن عباس رضي الله عنهما ». [1]

وقال أبو مسهر : «سمعتُ سعيد بن عبد العزيز يعاتب أصحاب الأوزاعي، فقال:

مالكم لا تجتمعون، مالكم لا تتذاكرون؟! [2]

كذلك نقول:

إنَّ كلّ ما يُنقَل عمَّا يحفظه البخاري وأحمد، وغيرهما من أحاديث فهو دلائل المُذاكرة بين العلماء، لأنه لا يُعرَفُ مثلُ هذه المحفوظات إلا بالمُذاكرة.[3]

وقد كان أحدُ السلف من أهل الحديث، يحفظُ الكثيرَ والكثير، فكان لا يجدُ له قرينًا، فكان يقوم الليل، فيُوقِف الجارية، فيسمع لها ما ذاكره من الأحاديث.

وقالوا:

من حاز العلمَ وذاكره .... صلحت دنياه وآخرته

فأدم للعلم مذاكرةً .... فحياة العلم مذاكرته.

قال الخطيب:

وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل ، وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك، وكان جماعة منهم يبدؤون من العشاء ،فربّما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح. [4]

وللمذاكرة بين الأقران فوائده عديدة:

فإنَّ مجالسة الأقران من طلاب العلم تزيد العقل رجاحة ورصانة وفهماً ، وتفتّح مدارك العقل لشتى فروع العلم ، ومسائله ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف اغترف....

وكان علماء السلف يجالس بعضهم بعضاً ، حتى يقول أحدهم بعد أن تصدَّر للناس ، وصار إماماً :"وهذه الفائدة ظهرتُ لي في المدارسة مع فلان ، وفلان ".

وكثيراً ما كان ابنُ فيروز في حاشيته على "الروض المربع" يقول:

---

[1] أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (2/ 273) رقم (1831).
[2] انظر: المصدر السابق(2/ 273) رقم (1833).
[3] وعن صفة مذاكرة السلف ونماذج منها راجع حواشي تذكرة السامع والمتكلم (ص ١٤٣-١٤٦) .
[4] انظر: المجموع شرح المهذب (38/1)

"وهذا مما أبداه بعض أذكياء الطلبة " ، والمعنى أنه كان يستفيد تلك الفوائد من مجالس المذاكرة بينه وبين قرنائه. [1]

ومن فوائد المذاكرة بين طلبة العلم ما ذكره الإمام النووي بقوله :

ويذاكر بمحفوظاته من ذلك من يشتغل بهذا الفن ، سواء كان مثله في المرتبة أو فوقه أو تحته ؛ فإنَّ بالمذاكرة يثبت المحفوظ ، ويتحرَّر ويتأكد ويتقرَّر، ويزداد بحسب المذاكرة .[2]

قال عبد الله بن المعتز : مَن أكثرَ مذاكرة العلماء لم ينس ما علم، واستفاد ما لم يعلم .[3]

نعود لنقول:

إنَّ نعمة البيئة الصالحة ، وقرناء الخير من نجباء الطلاب لهي أعظم النعم على طالب العلم ، حين يراجع دروسه معهم ، كلٌ يخبر الآخر بفهمه ،فليحرص على اغتنامها كلُّ طالب علم.

الركن الثالث: الحفظ :

فالأصل في العلم أن يُحفَظ في صدور الذين أوتوا العلم، قال تعالى {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ} [العنكبوت:٤٩]،فلا غنى لطالب العلم عن الحفظ ، حفظ المتون والنُظُم ؛ فقدْر كل طالبٍ ما كان يحفظه ، وهو رأس ماله الذي سيعرف الشاب قيمته حقاً عند المشيب .

قال النووي:وبعد حفظ القرآن ، يحفظ من كل فنٍ مختصراً ، ويبدأ بالأهم ، ومن أهمها الفقه والنحو ، ثم الحديث والأصول ، ثم الباقي على ما تيسَّر ، ثم يشتغل باستشراح محفوظاته . [4]

قال ابن جماعة:ثم يحفظ من كل فنٍ مختصرًا يجمع فيه بين طرفيه من الحديث وعلومه، والأصول والنحو والتصريف، ولا يشتغل بذلك كله عن دراسة القرآن وتعهده وملازمة ورده منه في كل يوم أو أيام أو جمعة ، وليحذر من نسيانه بعد حفظه ؛ فقد ورد فيه أحاديث تزجر عنه. [5]

قال المزني، سمعتُ الشافعي يقول:

" حفظتُ القرآنَ وأنا ابن سبع سنين، وحفظتُ الموطأ وأنا ابن عشر . [6]

---

[1] ابن فيروز : هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن فيروز التميمي النجدي الأحسائي ، ولد يوم 18 ربيع الأول 1142 هـ بمدينة الأحساء، ونشأ بها برعاية والده، كف بصره بالجدري وهو ابن ثلاث سنين، ويقال تسع سنين ، وكان يقول لا أعرف من الألوان إلا الأحمر.
وحاشية ابن فيروز من أنفس ما كتب على الروض من الحواشي؛ لما فيها من التحريرات المذهبية، وشيء من علم الأصول والحديث، وقد نقلها كلها تقريبا العنقري، وكذا ابن القاسم في حاشيتيهما على الروض المربع ، والله أعلم.

[2] انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج(39/1)

[3] انظر: فتح المغيث (318/3)

[4] انظر: المصدر السابق(38/1)

[5] انظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم(ص/113)

[6] انظر: تاريخ بغداد(62/2)وسير أعلام النبلاء(11/10)

إنَّ في ذلك لآية:

ذكر ابن ناصر الدين الدمشقي أَنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية لما كَانَ صَبياً أَرَادَ وَالِده أَن يخرج بأولاده يَوْمًا إلى الْبُسْتَان على سَبِيل التَّنَزُّه ، فَقَالَ لَهُ :

يَا أَحْمد تخرج مَعَ إِخْوَتك تستريح ، فاعتل عَلَيْهِ ، فألح عَلَيْهِ وَالُده ، فَامْتنعَ أَشد الِامْتِنَاع ، فَتَركه وَخرج بإخوته ، فظلُّوا يومهم فِي الْبُسْتَان وَرَجَعُوا آخر النَّهَار ، فَقَالَ : يَا أَحْمد أوحشت إِخْوَتك الْيَوْم ، وتكدر عَلَيْهِم بِسَبَب غَيْبَتِك عَنْهُم ، فَمَا هَذَا ؟ فَقَالَ : يَا سَيِّدي إِنَّنِي الْيَوْم حفظت هَذَا الْكتاب ، لكتابٍ مَعَه ، فَقَالَ : حفظته ! كالمنكر المتعجب من قَوْله ، فَقَالَ لَهُ استعرضه عَليّ ، فاستعرَضه فإذا بِهِ قد حفظه جَمِيعه ، فَأَخذه وَقَبله بَين عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ يَا بني: لَا تخبر أحداً بِمَا قد فعلت ؛ خوفًا عَلَيْهِ من الْعين . [1]

واعلم أنَّ للحفظ سبلاً تعين عليه ، نذكر منها:

1-الممارسة والمصابرة:

قال الإمام أبو هلال العسكري عن نفسه :

" كان الحفظ يتعذّرعليّ حين ابتدأتُ أرومه , ثم عودتُ نفسي , إلى أن حفظتُ قصيدة , هي قريب من مائتي بيت في ليلة" .[2]

2- جمع الهمِّ ، والتفرّغ من الشواغل:

روى الخطيب بسنده عن مليح بن وكيع قال: سمعتُ رجلاً يسأل أبا حنيفة : بمَ يُستعان على الفقه حتى يُحفظ ؟ قال : «بجمع الهمِّ»، قال : قلتُ: وبمَ يُستعان على حذف العلائق؟

قال: «بأخذ الشيء عند الحاجة، ولا تزد»[3]

ومعنى جمع الهمِّ: أن يجمع ذهنه وفكره ومراد نفسه حال إقباله على محفوظه.

فإذا سألتَ: وكيف يثبت حفظي؟

نقول : الزم أمرين :

1-الأمر الأول: تكرار ما حفظته ومراجعته:

فعن ابن عمر رضي الله عنها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

[1] انظر: الرد الوافر (234) وقوله : " يَا سَيِّدي إِنَّنِي الْيَوْم حفظت هَذَا الْكتاب" ، قال الصفدي : وهذا الكتاب الذي حفظه هو "روضة الناظر وجنّة المناظر "
انظر: "أعيان العصر وأعوان النصر"(236/1) .

[2] انظر: الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص/71) .

[3] انظر: الفقيه والمتفقه(184/2)

«إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ». [1]

قال ابن عبد البر:«وفي هذا الحديث دليل على أنَّ من لم يتعاهد علمه، ذهب عنه». [2]

وإذا كان القرآن الميسَّر للذكر يذهب إن لم يتعاهد، فما ظنك بغيره من العلوم المعهودة ؟!.

2- الأمر الثاني: العمل به:

فإذا أردت أن يثبت لك العلم فاعمل به ، قال تعالى(وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)(النساء:66)

فذكر تعالى المقدِّمة (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) ، ثم ذكر النتيجة التي بُنيت على العمل ، ألا وهي الثبات على الأمر.

ونظير ذلك : قوله تعالى {إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} (الأنفال: 29)

فهي مقدِّمة ونتيجة:

الشرط ، و جواب الشرط، {إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} ، أي تفريقاً بين الحق والباطل ، فلا يلبّس عليكم، فكم من أناسٍ في هذا الباب لُبِّس عليهم الحق والباطل، فعاش الواحد منهم عمره يدافع عن قضية فاشلة خاطئة كاذبة، وحسب أنه يُحسن صنعًا.

الركن الرابع:

وهذا الركن للأسف الشديد مما يفرّ منه جماهير طلبة العلم إلَّا من رحم الله تعالى ، وهو رأس الخير لو كانوا يعلمون ، ألا وهو الاختبار ، حينما تكتب وتذاكر وتحفظ ؛ فإنَّ البناء عندها يظهر تمامه وكماله ، فإنك قد تحفظ العلم وتفهمه على فهمك ومرادك الذي سمعته من شيخك ، وخير ما يبيّن له صحة فهمك أن تُختبر فيما ذاكرته .

أقول :

إنَّ السلاسل العلمية والدورات التأسيسية التي قد تراها على مواقع التواصل مع ما فيها من خير لا يُغفل، ولكنها تفتقد أمراً عظيم الأهمية في طريق طالب العلم ، وهذا الأمر تراه في الحلقات الصغيرة ، ألا وهو متابعة الشيخ للطالب واختباره .

فمثل هذه الأمور لن تراها إلَّا في المجالس والحلقات التي تجالس فيها شيخاً يختبرك ، ويصحِّح فهمك، فإذا وجدتَ مثل هذا فاعلم أنك قد رُزقتَ نعمة جديرة بشكرها ، فاحرص عليها، واعضض عليها بالنواجذ.

---

[1] أخرجه البخاري(5031)، ومسلم (789).

[2] انظر: التمهيد (14/ 133).

فهذه يا طالبَ العلم على اختصار يناسب المقام أركان العلم الأربعة ، فالزمها لئلا يذهب عمرك في الطلب مضيعة.

ثم قال المصنف وهو يتحدَّث عن هدي طلاب العلم : "قال : أو بحثوا أو ناظروا":

الفرق بين البحث والمناظرة:

البحث :هو أن تبحث في مسألة ما ، تبحث في أقوال العلماء فيها ، ماذا قال فلان، وماذا قال فلان.

أما المناظرة، فهي من المفاعلة، فتكون مع الغير ، حيث يتباحث اثنان أو يزيد في مسألة ما ، وقد يكون لكل واحد منهما وجهة يرجِّحها ، يخالف فيها وجهة الآخر.

الفرق بين المناظرة والجدال:

أما الأول فمحمود ؛ لرغبة كل طرف أن يظهر الحق ، بغض النظر عمَّن يكون صاحبه وقائله منهما.

فالمناظرة هي محاورة بين طرفين حول مسألة ما ، لكل منهما وجهة نظر تخالف الآخر، فيحاول كل طرف إثبات وجهة نظره، وإبطال وجهة نظر مُناظِره، مع رغبته الصادقة بظهور الحق ، والاعتراف به لدى ظهوره .[1]

وقد استحسن الإمام أحمد ما حُكِي عن حاتم الأصم أنه قيل له: ما ناظرك أحدٌ إلَّا قَطَعْتَه، فبأي شيء تغلب خصمك ؟ فقال : أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه.[2]

قال الإمام الشافعي: والله، ما ناظرتُ أحدًا فأحببتُ أن يخطئ .[3]

وقال رحمه الله: ما ناظرتُ أحدًا قط إلَّا على النصيحة .[4]

وأما الجدال فهو مذموم:

وهو رغبة كل طرف في ظهور قوله ، بغض النظر عن الحق،فكلا الطرفين يريد أن ينتصر لنفسه، لا أن يظهر الحق ، لذا فقد ترى فيه حظ النفس ، وفيه نوع من الإصرار على فرض الرأي، فصار الغرض المقصود هو رغبة المجادل أن يركن الخصم إلى رأيه ، لا أن يظهر الحق ،فالمجادل لسان حاله يقول: "قولي صواب لا يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ ، لا يحتمل الصواب."

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

---

[1] انظر: معجم مصطلحات أصول الفقه(ص/450)
[2] انظر: الفرق بين النصيحة والتعيير (ص/35)
[3] رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (50/2)
[4] انظر: حلية الأولياء(118/9)

" مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف:58)[1]

قال ابن الأثير : والمراد به في الحديث الجدل على الباطل، وطلب المغالبة به، فأما الجدل لإظهار الحقّ فإنَّ ذلك محمود، لقوله تعالى (وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ)(النحل:125) .[2]

قال المصنف رحمه الله، وهو وما زال يوصي المعلِّمُ والمتعلِّمَ : اسمعوا واستمعوا.":

الفرق بين السماع والاستماع:

أما السماع فإنه لا أجر عليه ولا وزر ، فإذا كنتَ جالسًا بجوار إذاعة القرآن الكريم،مثلاً ، والقارئ يقرأ ، فأنت تسمع سماعًا عابرًا ، هذا لا أجر عليه .

كذلك إذا كنت في سيارة عامة ، وكان فيها صوت الموسيقى، وأنت تسمع بوصول الصوت إلى الأذن، ولكنك لا تستمع ، فمثل هذا لا يترتب عليه الوزر ، إذا قمتَ بحق النصحية حسب الاستطاعة.

ففارق بين السماع والاستماع ، لذا قال الله تعالى(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا)

[الأعراف:٩]

والزيادة في المبنى زيادة في المعنى، لذا فإنَّ الاستماع هو سماع وزيادة ، فهو الوقوف مع السمع بالتأمّل والتدبر والتفهّم ، فالاستماع أخص من السماع ، فكل مستمعٍ سامع، لكنَّ العكس غير صحيح.[3]

لذا فقد أمر الله تعالى عباده بإلقاء السمع حال سمع آياته الكريمة ، فقال تعالى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)(ق:٣٧]

قال ابن القيم:إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن فاجمَعْ قلبك عند تلاوته ، وألقِ سمعك واحضُرْ حضور من يخاطبه به من تكلَّم به سبحانه منه إليه ؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله ﷺ .[4]

قال المصنِّف: " أو كرَّروا دروسهم الخاصة":

مسألة تكرار العلم، والأمر إذا تكرَّر تقرَّر، فلا بد من تكرار المسألة مرارًا؛ فالعلم لا يثبت إلَّا بالتكرار، فبالتكرار يزكو العلم وتثبت الأفكار، وتكرار مسائل العلم هو سُنة السلف:

---

[1] أخرجه الترمذي (3253)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
[2] انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر(248/1)
[3] من أمثلة قاعدة :الزيادة في المبنى زيادة في المعنى :
قوله تعالى (وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ) (فاطر:37)
فلا شك أنَّ الاصطراخ أشد من معنى الصراخ ، فهو صراخ وزيادة ، أعاذنا الله تعالى من ذلك.
وكذلك قوله تعالى(رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا)(مريم:65) ، فقال تعالى (اصطبر لعبادته) ولم يقل "واصبر لعبادته".
[4] انظر : الفوائد(ص/5)

قال إسماعيل بن يحيى المزني صاحب الشافعي: قرأتُ كتابَ "الرسالة" للشافعي خمسمائة مرَّة، ما من مرَّة منها إلاَّ واستفدتُ فائدة جديدة لم أستفِدها في الأخرى. [1]

وقال رحمة الله عليه: أنا أنظر في كتاب الرسالة مُنذُ خمسين سنة، ما أعلم أنِّي نظرتُ فيه مرَّة إلاَّ وأنا أستفيد شيئًا لم أكن عرفتُه . [2]

قال ابن بَشْكُوَال: كان الإمام أبو بكرغالب بن عَطيَّة حافظًا للحديث وطرَقه وعِلَله، عارفًا بالرجال، ذاكرًا لمتونه ومعانيه، قرأتُ بخطِّ بعض أصحابنا أنَّه سمعه يَذكر أنَّه كرَّر "صحيح البخاري" سبعمائة مرَّة . [3]

قال رجلٌ لأبي مسعود الرازي: إنا ننسى الحديث ، فقال: " أيّكم يرجع في حفظ حديث واحد خمسمائة مرة ؟ قالوا: ومن يقوى على هذا ؟ فقال:" لذلك لا تحفظون ". [4]

قال يحيى بن معين : كتبتُ بيدي ألفَ ألفَ حديث ، قال الذهبي : يعني : بالمكرَّر ، ألا تراه يقول - أي ابن معين-: لو لم نكتبْ الحديث خمسين مرة ما عرفناه . [5]

لذلك: إياك أخي أن تملَّ من التكرار، وخذ هذه القاعدة: "مَن ملَّ وكلَّ ، دَرَسَ علمُه وقلَّ ".

ومعنى كلمة دَرَسَ: لغة أي : انمحى وقلَّ.

قال المصنِّف" وراجعوا عليها أو على غيرها من الكتب الأخرى:

والمصنِّف هنا يريد أن يبيّن لك مسألة مهمة حال رحلتك في الطلب ، ألا وهي تنويع الكتب، وأنك لا تلزم كتابًا واحدًا ، ولا فناً واحداً من العلم ؛ ذلك لأنَّ التنويع يعطي لك الثقل والمتانة، فطالب العلم طالب موسوعي ، يحوز من كل شيء شيئاً ، وينهل من كل فنٍّ فناً .

فإن كنتَ -مثلاً-طالبًا في العقيدة فقط ، فستكون ضعيفًا في الأصول،والحديث ،والفقه ، وكذلك إذا كنتَ متخصصًا في الفقه فقط ، ستضعف عقيدتك ، وإن لم تدرس النحو أصاب لسانَك اللحنُ ، على أنه لا يُراد من طالب العلم أن يكون عالمًا بالفرق بين الكوفيين والبصريين في خلافات مسائل النحو مثلاً، بل على الأقل تأخذ فقط ما يستقيم به اللسان.

فالنحو للكلام كالملح للطعام، وطعام بلا ملح لا يُؤكل، فيقبح بطالب العلم أن يُلحن في كلامه .

وتأمل في قول الأَصْمَعِي:

---

[1] انظر: توالي التأسيس (ص/150)
[2] انظر: طبقات الشافعية الكبرى(99/2)
[3] انظر: السير (19/ 587) وشذرات الذهب (4/ 202)،ولمزيد من هذه الأخبار يراجع:
"صفحات من صبر العلماء" لعبدالفتاح أبو غدّة (ص/197)، و"المشوق إلى القراءة وطلب العلم" ؛ لعلي بن محمد العمران (ص/ 107).
[4] انظر: طبقات المحدّثين(256/2)
[5] انظر: سير أعلام النبلاء(85/11)

إنَّ أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : "مَنْ كَذَبَ عليَّ فليتبوأ مقعده مِنْ النَّارِ"، لأنه لم يكن يُلحن، فمهما رويتَ عنه ولحنتَ فيه كذبتَ عليه .[1]

نقول:فإذا كان إثبات اللفظ مع لحن القول قد خشي الأصمعي أن يكون ذلك معدوداً في الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف بمن تعمّد وضع ما ليس من قوله صلى الله عليه وسلم؟!

وعن حاجب بن سليمان قال: سمعتُ وكيعاً يقول أتيتُ الأعمشَ أسمع منه الحديث، وكنت ربما لحنتُ، فقال لي: يا أبا سفيان: تركتَ ما هو أولى بك من الحديث ، فقلت: يا أبا محمد، وأي شيء أولى بي من الحديث ؟ فقال النحو ، فأملى عليَّ الأعمشُ النحوَ، ثم أملى عليَّ الحديث .[2]

وكان مما يُغمزُ به الرُّواة في كتب التراجم أنهم يُلحنون ، كما قال هشيم في ترجمة إسماعيل بن أبي خالد: "كان إسماعيل فاحش اللحن، وكان يقول: "حدَّثني فلان عن أبوه".3

لقد أدرك الأئمةُ الأقدمون أهميةَ اللغة العربية في فهم كلام الله سبحانه وتعالى وكلامِ رسوله ﷺ ، فهذا الإمام الشافعي يقول عنه زوجُ ابنته:

أقام الشافعي علمَ العربية وأيامَ الناس عشرين سنة، فقلنا له في هذا، فقال: " ما أردتُ بهذا إلَّا استعانةً للفقه " .4

أي: ظلّ عشرين سنة يتبحَّر في اللغة العربية وعلومها ليفقه القرآن والسنة، ولا يستغرب منه هذا، فهو الذي يقول: "أصحاب العربية جِنُّ الإنس، يُبصرون ما لم يبصرْ غيرُهم". [5]

ومن طرائف المدّعين في هذا الباب :

لمَّا دخل خالد أبو صفوان الحمَّام ، وفيه رجل مع ابنه ، فأراد الرجلُ أن يُعرِّفَ خالداً ما عنده من البيان ، فقال: «يا بنيّ، ابدأ بيداك ورجلاك» ،ثم التفتْ إلى خالد ، وقال: يا أبا صفوان ،

هذا كلام قد ذهب أهله ، فقال أبو صفوان: هذا كلام لم يخلق الله تعالى له أهلاً قط .[6]

قال الشاعر عبدالرحمن العشماوي:

يُلْقِي عَلَى المَرْفُوعِ صَخْرَةَ جَهْلِهِ ,,,, فَيَصِيرُ تَحْتَ لِسَانِهِ مَجْرُورًا.

---

[1] انظر : روضة العقلاء (ص/322) ، وتاريخ ابن عساكر (80/37)وتهذيب الكمال(388/18)
[2] انظر: مراتب طلب العلم وطرق تحصيله(ص/119)
[3] انظر: الكفاية في علم الرواية(ص/197)
[4] انظر: الفقيه والمتفقه [41/2].
[5] انظر: آداب الشافعي ومناقبه(ص/150)
[6] انظر: أخبار الحمقى والمغفلين(ص/127)وأخبار النحويين(ص/44)

قال المصنِّف: "أو جلسوا في مجلسِ علم":.

هذه مسألة مهمة جدًا يذكر فيها المصنف أحد أهم وأعظم وسائل تحصيل العلم الشرعي ، وهي أن تجلس في مجالس العلم، أقول ذلك في زمن اكتفى فيه الطلاب بالعالَم الافتراضي، العالَم الأزرق، وقلَّت خطاهم إلى مجالس العلم.

فالطالب قد يجلس لسماع درس في بيته فتُغلَق عليه المسائل، أما في مجالس العلم حيث تغشى أهله الملائكة، وتتنزّل عليهم الرحمات والبركات، وسعة السكَينة والطمأنينة {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]،وعليكم يا طلاب العلم بفهم هذه القواعد المهمة:

1-الأصل في العلم التلقِّي.

2-من كان شيخُه كتابَه ، غلب خطؤه صوابَه.

3-من دخل في العلم وحده، خرج من العلم وحده.

نأتي إلى القاعدة الأولى:

1-الأصل في العلم التلقِّي، وهذه القاعدة دليلها، قوله تعالى{وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} [النمل: 6]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:" تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ " . [1]

فهذا الحديث فيه دلالة بيّنة على ما نقول ، وهو أنَّ الأصل في العلم التلقِّي ، ووجه الشاهد منه:

أنَّ هذا الحديث خبرٌ يُراد به الأمر، أي: لْتسمعوا مني الحديثَ ، وتُبلغوه عني، ولْيَسْمَعْهُ مَن بعدي منكم ، ويَسمَعُ مِن التابعينَ أتباعُ التابعينَ ، وهكذا ، فالعلم ما هو إلَّا تلقّاه الرجال عن الرجال .

ويكفي أن نعلم أنَّ هذا السبيلُ ، الذي هو التلقّي عن الأشياخ ،كان هو الهدي المتّبع لدى علماء السلف من متقدِّمي هذه الأمة إلى متأخِّريها ، فقد أخذ الصحابةُ رضي الله عنهم الإسلامَ بعلومه من رسولِ الله ﷺ ، ثم تلقَّاه عنهم التابعون ، وهكذا تلقَّاه تابُعو التابعين عن التابعين ، وهكذا درَج الأمر إلى يوم الناس هذا ، حتى صار المرء يُعرف هديه بمعرفة شيوخه الذين حمل عنهم العلم ، فصار يقال في كل من تصدَّر للتدريس : مَن شيوخه ؟ .

ولا شك أنَّ المعلِم هو المصباح الذي يستنير به الطالب في طريقه ، وفضائل المعلِّم على طلابه تُعدُّ ، ولا تُحصى ، فهذا شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية، وفضله على تلميذه الذي لازمه حقًّا

[1] أخرجه أحمد (2945)،وأبو داود (3659)، وحسنه الذهبي في "معجم شيوخه"،والعلائي في "جامع التحصيل"(ص/51)

من المِحبَرة إلى المقبرة، وهو ابن القيم ، فقد مات شيخ الإسلام ابن تيمية في سجن القلعة ، وكان برفقته تلميذه ابن القيم.

ابن القيم لازم شيخه أبا العباس ابن تيمية في حِلّه وترحاله، في مجالسه، حتى في سِجنه، وإذا تتبعتَ ابنَ القيم في أوائل ما كتب، وجدتَ عنده نَزعةً نحو الصوفية المحدَثة ، فلم يكن على جادة السنّة، حتى رُزِقَ بشيخ الإسلام ابن تيمية ، حيث يقول ابن القيم معبّرًا عن فضل شيخه:

يا قومِ واللهِ العظيمِ نصيحةً ... من مُشفِقٍ وأخٍ لكم معوانِ.

جربتُ هذ كلَه ووقعتُ في ... تلك الشِّباكِ، وكنتُ ذا طيرانٍ

حتى أتاحَ ليَ الإله بفضله ... مَن ليسَ تَجزيه يدي ولساني

أخذتْ يداه يدي وسار فلم يُرم .....حتى أراني مطلعَ الإيمانِ

فرأيتُ آثارًا عظيماً شأنها ... محجوبةٌ عن زُمرة العُميان.[1]

قال يوسف بن أسباط: كان أبي قدَريّاً ، وأخوالي روافض، فأنقذني الله تعالى بسفيان الثوري. [2]

تخيّل ، رجل نشأ بين أهل بدعٍ وأهواء ، ولكنَّ الله تعالى برحمته نجّاه ورزقه بمعلِّمٍ على السُّنّة.

فكم من يدٍ لهذا المعلِّم على هذا الطالب ، وأنَّى لهذا الطالب يجزي معلِّمه على هذه النعماء؟!

قال ابن شوذب :إنَّ من نعمة الله تعالى على الشاب إذا تنسَّك أن يؤاخي صاحب سُنّة يحمله عليها. [3]

قال أيوب السختياني: إنَّ من سعادة الحَدَثِ أن يوفِّقه اللهُ تعالى لعالمٍ مِنْ أهل السُنّة . [4]

حقاً والله ، إنها لمن أعظم نعم الله تعالى على الشاب في بداية طريقه في الطلب ،أن يرزقه الله بشيخٍ على السُّنّة يأخذ بيده إلى الاعتقاد الصحيح .

فكم من أناسٍ ضلُّوا حينما أخطؤوا الطريق؟ وكم من طلابٍ نُجَباءَ سقطوا حين أساؤوا البِدَاية.

وهذا الإمام أبو الحسن الأشعري، كان ربيبًا عند أبي علي الجُبّائي ،وهو أحد رؤوس مدرسة الاعتزال في زمانه ، مكث عنده أربعين سنة ، فتشرَّب أبو الحسن منهج المعتزلة طوال هذه المدة ، حتى منَّ الله تعالى عليه فثاب إلى منهج أهل الأثر واالسُّنة.

---

[1] انظر: متن النونية المسمَّاة " الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية" شرح محمد خليل هرّاس(335/1)
[2] انظر: مسند ابن الجعد(1806) وتاريخ دمشق (96/8)
[3] انظر: الإبانة (251/1)
[4] انظر: شرح أصول الاعتقاد للالكائي (66/1)

ولا أدلَّ على فضل ملازمة الطالب لشيخ على السنّة من قصة غلام الأخدود ، الذي كان يُرسِله الملِكُ إلى الساحر ليكون خليفته من بعده ، فمَنَّ اللهُ تعالى عليه في طريقه براهبٍ عابد على الجادة ، فتعلَّم منه حتى صار الغلامُ وليًّا ، فكان من كراماته أن يضرب الدابَّة العظيمة بحَجر فتسقُط ، ويُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ بإذن الله تعالى،وما هذا إلّا بفضل ملازمة أهل الحق .

قال الربيع بن سليمان : سمعتُ الشافعيَّ يقول: دخلتُ بغداد فنزلتُ على بشر المريسي، فأنزلني في غرفة له ، فقالت لي أمُّه: لم جئتَ إلى هذا؟ قلتُ : أسمع منه العلم ، فقالتْ: هذا زنديق ! [1]

أمُّه تقول ذلك ! كانت أمُّه على عقيدة العجائز، لم تكن "سلفية" بالمعنى الشائع ، ولكن كانت على الإيمان الفطري ، على التوحيد الخالص ، والشِّرب الأول ، فقالت له: "هذا زنديق ".

تأمَّل: لو لم تخرج أمُّ المريسي للشافعي، لكان... وكان... وكان...

ولا شك أنَّه بمجالسة أهل العلم تجد بركة في العمر والوقت ، فالساعات الطويلة التي قد تقضيها في جمع مسألة واحدة يعلّمك إيّاها شيخك في وقت قليل .

فضلاً عن أمر آخر بالغ الأهمية :

ألا وهو أنَّ الطالب إذا تلقَّى العلم عن شيخه استفاد من سَمْتِه وهَدْيه، فأثَّر ذلك في أدبه وسلوكه.

قال الإمام مالك: كانت أمي تُعَمِّمُني، وتقول لي: " اذهب إلى ربيعة، فتعلَّم من أدبه قبل علمه ". [2]

قال الحسين بن إسماعيل سمعتُ أبي يقول :

كان يجتمع في مجلس أحمد بن حنبل رحمه الله زهاء على خمسة آلاف ، أو يزيدون ، أقل من خمسمائة يكتبون ، والباقي يتعلَّمون منه حسن

الأدب وحسن السمت. [3]

قال أبو بكر بن المطوعي:

اختلفتُ إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ثنتي عشرة سنة ، وهو يقرأ "المسنَد" على أولاده ،

ما كتبتُ منه حديثًا واحدًا؛ إنما كنتُ أنظر إلى هديه وأخلاقه وآدابه . [4]

قال إبْرَاهِيمَ النخعي : «كَانُوا إِذَا أَتَوْا الرَّجُلَ يَأْخُذُونَ عَنْهُ الْعِلْمَ، نَظَرُوا إِلَى صَلَاتِهِ، وَإِلَى سَمْتِهِ، وَإِلَى هَيْئَتِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ». [1]

---

[1] انظر: تاريخ بغداد(525/7)
[2] انظر:ترتيب المدارك(119/1)
[3] انظر: مناقب الإمام أحمد(ص/288)والآداب الشرعية، والمنح المرعية(12/2)
[4] انظر: مناقب الإمام أحمد (ص/288)

قال ابن المبارك وقد أراد سفراً فسُئل: إلى أين؟ قال: إلى البصرة ، قالوا: إلى منزلٍ من في البصرة؟ قال: إلى ابن عَون، آخذ من أخلاقِه وأدبِه. [2]

ولقد أحسن عبد الله بن المبارك حيث يقول :

أيُّها الطالب عِلماً ... ائتِ حمادَ بنَ زَيْدِ

فَالْتَمِسْ حِلْماً وعِلْماً ... ثمَّ قيِّدْهُ بِقَيْدِ. [3]

وانظر إلى قاعدة ابن جماعة وهو يتحدَّثُ عن المعلِّم :

ولا يرضى من أفعاله الظاهرة والباطنة بالجائز منها، بل يأخذ نفسه بأحسنها وأكملها فإن العلماء هم القدوة وإليهم المرجع في الأحكام وهم حجة الله تعالى على العوام وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون، ويقتدي بهديهم من لا يعلمون ، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه فغيره أبعد عن الانتفاع به .[4]

القاعدة الثانية:

" من كان شيخُه كتابَه ، غلب خطؤه صوابَه":... هذه القاعدة لا تحتاج إلى دليل، فالواقع والوقائع خير دليل.

قال الحافظ الكبير الخطيب البغدادي نقلًا عن بعض المحدِّثين: "مَن طالَع الكُتُبَ لنفسهِ بدونِ مُعَلِّمٍ يُسمَّى صَحُفِيًّا ، ولا يُسمَّى مُحَدِّثًا ، ومَن قَرأ القُرآن لِنَفْسه بِدُون مُعَلِّمٍ يُسَمَّى مُصْحَفِيًّا ، ولا يسمَّى قارئًا ".

وخير مثال على ذلك :" فتنة الخوارج " :

فإنَّ الخوارج ما قاتلوا خيارالمسلمين من صحابة النبيِّ ﷺ إلَّا لمَّا أخذوا العلم من بطون الكتب ، وتعلَّقوا بظواهر القرآن ، وأنزلوه على فهومهم ، فلم يجلسوا للرُكب بين الصحابة رضي الله عنهم يتعلَّمون العلم المنزّل على مراد الله عزوجل ، وعلى مراد رسوله ﷺ ، بل كانوا أتباع أهواء ،في قلوبهم زيغ ، يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، لذا صاروا كمن قال الله تعالى فيهم (ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

وهل يستوي مَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ بمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فرآه حسناً ؟!

تنبيه مهم:عبارة : " من كان شيخُه كتابَه ، غلب خطؤُه صوابَه " ، ليست مطردة على إطلاقها ؛ فإنَّ الطالب الذي يأخذ العلم رأساً من الكتب فلا شك أنه يخطئ كثيرًا ، ولا يهتدي السبيل،

---

[1] انظر: سنن الدارمي(435) ، إسناده صحيح.
[2] انظر: صفة الصفوة(2/ 184).
[3] انظر: جامع بيان العلم وفضله(127/1)
[4] انظر: تذكرة السامع والمتكلم(ص/31)

فيبقى سيره يخطو بعرَج ، ولا يسلم فهمُه من عِوج ، وأما الذي يعتمد في تعلُّمه على مجالسة أهل العلم الثقات ، مع مطالعته توسعّاً لكتب رجال معروفين بالثقة والأمانة والعلم بحسب مرحلته العلمية ، فإنَّ هذا لا يكثر خطؤه ، بل قد أحسن السير بالجمع بين الحسنيين .

القاعدة الثالثة: من دخل في العلم وحده، خرج من العلم وحده:

والمعنى أنه: من دخل العلم بفهمه هو ، لا بفهم معلِّمه ، خرج وحده ، أي خرج بلا شيء .

وكان السلف إذا سمعوا عن رجل تصدَّر للتدريس، قالوا: مَن شيخه؟ ، وقد كان مما يُلمز به في كتب التراجم ، حتى عدّوه من المثالب أن يقال : " فلان لا شيخ له ".

وكان من ثوابت نصح علماء السلف للطلاب ألَّا يأخذوا ممن أخذ علمه من بطون الأوراق، ولم يُعرف بصحبة المشايخ الحذَّاق، حتى قال بعضهم: "من أعظم البليّة تشييخ الصُّحُفِيَّة - أي الذين تعلَّموا من الصُحُف".

وهل يستوي مَن جمع علمه من الورقات ، بمَن جمع علمه مِن الروقات؟!

قال النووي:ويداوم على تكرير محفوظاته، ولا يحفظ حتى يصحِّح على الشيخ، فالاستقلال من أضرّ المفاسد، وإلى هذا أشار الشافعي بقوله: "من تفقَّه من الكتب ضيَّع الأحكام ". [1]

قال الذهبي في ترجمة علي بن رضوان المصري الطبيب (ت:453هـ) :

"ولم يكن له شيخ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب، وصنَّف كتاباً في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلِّمين، وهذا غلط". [2]

وكان أبو حيَّان محمد يوسف الأندلسي إذا ذُكِر عنده ابن مالك، يقول : "أين شيوخه ؟ [3]

وقال الوليد : كان الأوزاعي يقول: كان هذا العلم كريماً ، يتلاقَّاه الرجال بينهم، فلمَّا دخل في الكتب، دخل فيه غيرُ أهله. [4]

وكان أبو حيَّان الأندلسيّ النَّحْوي كثِيرًا ما ينشد:

يَظُنُّ الغُمْرُ أنَّ الكُتْبَ تَهْدِي*** أَخَا فَهْمٍ لِإدْراكِ العُلُــومِ

وَمـا يَدْرِي الجَـهُولُ بِأنَّ فِيـها *** غَوامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الفَهِيمِ

إذا رُمْتَ العُلُومَ بِغَيْرِ شَيْـخٍ *** ضَلَلْتَ عَنِ الصِّراطِ المُسْتَقِيمِ

---

[1] انظر: المجموع(38/1)
[2] انظر: سير أعلام النبلاء (105/18)
[3] انظر: مقدمة التحقيق لكتاب "الغنية" للقاضي عياض (ص16 – 17)
[4] انظر: المصدر السابق(7 / 114)

وتَلْتَبِسُ العُلُومُ عَلَيْكَ حَتَّـى *** تَصِيرَ أَضَلَّ مِن تُومَا الحَـكِيمِ .

وتوما هذا كان طبيباً، ولكنْ تَطَـبُّبُه لم يكن على أيدي الحذَّاق من أرباب هذه الصنعة، إنما كان مِن الكُتُب، وقد وَقَع التَّصحيف في بَعض الكتُب التي عِندَه، فكان يَقْرَأ: "الحيَّةُ السَّوداء شِفاءٌ مِن كُلّ داءٍ"، حيث تَصَحَّفَتْ لديه كَلِمَة (حَبّة) إلى (حَيّة) فمَاتَ بِسَبَب تَطَبُّبِه خَلْقٌ كَثِير. [1]

قال الشيخ بكر أبو زيد: الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقّي عن الأساتيذ، والمثافنة للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال ، لا من الصُحُف وبطون الكتب . [2]

فائدة:

ذكر الشيخ هنا أنَّ الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقّي، فما الفرق بينهما؟

أما التلقّي : فيكون المعلم هو الذي يُملي على الطالب المسائل.

وأما التلقين: فإنَّ المعلم يكرّر العبارة لعدة مرّات ، والطالب يقول خلفه ليسهُل حفظها.

قول المصنِّف، وهو يتحدَّث عن طرق وسبل تحصيل العلم،: "أو ما يُعين على العلم":

قال: "أو ما" ، وهذه من صيغ العموم، والمعنى: أنَّك تبحث عن كل وسيلة تزداد بها علمًا ، لترفع عن نفسك الجهل، فإنَّ الأصل في الإنسان الجهل، لا العلم،حتى علَّمه الله تعالى ما لم يكن يعلم ، قال تعالى {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل: 78] ، وجاء الخبرُ بذلك عن الملائكة الكرام في قولهم (قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (البقرة:32)

فالإنسان مهما بلغ من العلم مبلغاً فعِلمه قليل ، قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء:85)

وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام ، " وجاءَ عُصفورٌ حتَّى وقعَ علَى حرفِ السَّفينةِ ،

ثمَّ نقرَ في البحرِ ، فقالَ الخَضرُ لموسى عليهما السلام :" ما نقصَ عِلمي وَعِلْمُكَ مِن علمِ اللَّهِ تعالى إلَّا مثلُ ما نقصَ هذا العُصفورُ منَ البحرِ"[3]

---

[1] وقال آخر:
قال حمارُ الحكيمِ توما *** لو أنصفوني لكنتُ أركب
لأنني جاهلٌ بسيط *** وصاحبي جاهلٌ مركَّب.
وقصة توما هذا أنه كان يوجدُ في دمشقَ محلةٌ اسمُها بابُ توما ، وكانَ في الماضي هناكَ فيلسوفٌ يدَّعي الفلسفةَ، فقالَ بعضُ أهلِ العلمِ هذين البيتينِ في ذمِّهِ، ومعنى البيتينِ أنَّ حمارَ هذا الحكيمِ الفيلسوفِ قالَ : لو أنصفوني يعني لو حكموا بالحقّ ما كنتُ أُركبُ، يعني ما كان يركبُني هذا الحكيمُ ، لأنني جهلي جهل بسيطٌ ، وأما جهله فجهلٌ مركبٌ، يعني أنا أعلم أني جاهل، أما الذي يركبُني فهو جاهلٌ مركبٌ، يجهلُ أنه يجهل ، هذا على لسانِ الحمارِ.
فالفرق بين الجهل البسيط والجهل المركب:
أنَّ صاحب الجهل البسيط يعلم أنه جاهل، ولا يزعم أنه عالم، بخلاف صاحب الجهل المركب، فإنه مع جهله يظن أنه عالم، فجهله مركب من جهلين: الجهل بالشيء، والجهل بأنه جاهل به.

[2] انظر: حلية طالب العلم(ص/195):،وقوله رحمه الله : المثافنة للأشياخ : أي الملازمة لهم بالرُكب.

[3] متفق عليه.

وكان الشيخ ابن باز -رحمه الله- دائم الدعاء بهذه الكلمات: "ربِّ زدني علمًا، ربِّ زدني علمًا" ، فيُسأل: أنت بلغتَ ما بلغتَ، وما زلتَ تقول ذلك؟ فيُجيب مستشهدًا بقول الله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]

فقول المصنِّف، وهو يتحدَّث عن طرق وسبل تحصيل العلم،: "أو ما يُعين على العلم":

والمعنى:أنَّ الطالب عليه أن يبذل الجهد في كل سبيل يُوصله إلى نفائس العلوم ، وعليه أن يستفرغ وِسْعه في ذلك ، وهذا يُستَقرأ من قوله ﷺ : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ " [1]، وفي رواية :

" مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ تعالى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ،وإِنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ، أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ".[2]

فقوله ﷺ "مَنْ سَلَكَ" : شرطية، و"طريقًا" نكرة في سياق الشرط تفيد العموم: أي من سلك أيي طريق، مسموعًا كان ، أو مقروءًا، أو محفوظًا، روايةً أو وجادةً ، أو غير ذلك"، فكلها داخلة في طرق وسبل تحصيل العلم .

قال ابن حجر: قوله ﷺ: (طريقاً): نكَّرها ، ونكَّر" علماً " لتناول أنواع الطرق الموصِّلة إلى تحصيل العلوم الدينية ، وليندرج فيه القليل والكثير .[3]

والله -تبارك وتعالى- من عظيم فضله قد يسَّر لنا في هذه الأزمنة ما لم يُيسرّه لغيرنا؛ فقد يسَّر لنا سُبل الطلب في كل وقت، وفي كل مكان، من خلال هذه السبل المسموعة والمرئية.

فأنت اليوم، في أقل من دقائق معدودات تستطيع أن تصل إلى الحديث، وحكمه، وشرحه، وتوضيحه، وكلام أهل العلم فيه ، وتراجم رجاله ، وبضغطة واحدة تستطيع سماع الساعات الطوال من الدروس الصوتية ، بل تستطيع كذلك تفريغها عبر برامج متخصصة ، دون أن تكتب حرفاً بيدك.

ولكن ، وللأسف فقد أظهر الاستقراء أنَّ التيسير لا يأتي إلَّا باليَسير ، والمعنى:

أنَّ الطالب إذا صار الأمر بالنسبة له سهلًا يسيرًا، أصابه الفُتور والزُّهد المذموم ، فلمَّا سَهُل الحصول على العلم زهدتْ فيه هِمَمُ الطلاب ،إلّا من رحم الله تعالى.

---

[1] أخرجه مسلم (2699)

[2] أخرجه أحمد(21715)والترمذي (2682) ،وصححه الألباني.
وقد أورد البخاري بعضه في "صحيحه" في كتاب العلم ضمن باب:" العلم قبل القول والعمل"، فقال:
"وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وَرَّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة" ، وقال الحافظ في "الفتح" 1/ 160 ، معقباً : " وهو طرف من حديث أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم مصححاً من حديث أبي الدرداء، وحسَّنه حمزة الكناني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوَّى بها".

[3] انظر : فتح الباري(192/1)

وأما السابقون فهم مختلفون:

فهذا الصاحب الجليل جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما يحكي لنا رحلته وهو يشدُّ الرِّحال في طلب حديثٍ واحد ، أبى إلاَّ أن يأخذه بعلّو ، فيقول:

" بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرًا، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ، فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ، فَقُلْتُ لِلْبَوَّابِ:

قُلْ لَهُ: جَابِرٌ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ: ابْنُ عَبْدِ اللهِ؟ قُلْتُ: نَعَم ، فَخَرَجَ يَطَأُ ثَوْبَهُ، فَاعْتَنَقَنِي، وَاعْتَنَقْتُهُ، فَقُلْتُ: حَدِيثًا بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْقِصَاصِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ أَوْ أَمُوتُ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ، قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ - عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا " قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا ؟

قَالَ: " لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ " ،قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عز وجل عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: " بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ " .[1]

أتدرون مَن "المِكْنَسَة"؟

إنَّه بَقِيّ بن مَخْلَد، هذا العالِم الذي جاب الأرض طلبًا للعلم، حتى لُقِّب بـ"المكنسة"، لقد بلغ به الجوع أنه أكل ورق الكرنب، فهذا هو الأصل في العلم ، أن تشدَّ الرِّحال في طلب العلم ، وكان أحدهم إذا طلب الحديث، احتسبه أهله.

وهذا يدل على حِرصهم على طلب العلم، وقد صُنِّف في سِيَرِ الأوَّلين في الطلب ، ومن ذلك كتاب الإمام الخطيب البغدادي الذي صنَّف "الرحلة في طلب الحديث"، وهو كتاب ماتع.

واحفظ هذه الثلاثة ،والتزم بها:

1-النَّعيم لا يُدرَك بالنَّعيم.

2-من لَزِمَ الوسادة ضيَّع السيادة.

3- من آثر الراحة ابتلي بالإزاحة .

[1] أخرجه البخاري في صحيحه معلقا بصيغة التمريض مختصراً قبل حديث (7481)، وفي موضع آخر من صحيحه علقه بصيغة الجزم قبل الحديث(78)،فقال: "باب الخروج في طلب العلم ، ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد " ،وأخرجه مسنداً : الإمام أحمد(16042)والبخاري في "الأدب المفرد" (970) والخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (1748)، وفي "الرحلة" (31)، وابنُ عبد البر في "بيان العلم"(ص/122) ، والحديث حسّنه المنذريّ في "الترغيب والترهيب" (4/ 202)، وحسَّنه شعيب الأرنؤوط.

ثم قال المصنِّف -رحمه الله-:" ثم بعد هذا يتعيّن البداءة بالأهم فالأهم من العلوم الشرعية، وما يُعين عليها من علوم العربية". .

يقول لك: في بداية الطلب، لا بدَّ أن تعرف من أين تُؤكل الكتف ، فكم من طُلّاب بارت أرضهم، لمَّا أساؤوا سقايتها، فلابد حين تبدأ أن تُقدّم الأهمَ على المُهم ، وهذا واجب في فقه التعامل مع الطلب ، أن تتدرج في أروقة العلم على بصيرة.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران : 79] :

" حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ" ،وقال البخاري: ويقال " الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ".[1]

قال ابن هبَيْرَة : والعالم ينبغي أن يربِّي الناس بالعلم تربيةً، ويغذيهم إيَّاه تغذيةً ؛ فيربيّهم بصغار العلم قبل كباره، فيكون ربانيًّا ، ويوضح ذلك أنَّ الطفل لما كانت معدته لا تقوى على هضم الأطعمة الغليظة يسر الله تعالى له رزقه من ثدي أمِّه مدة طويلة يتدرج فيها إلى تناول الأغذية ،فكذلك ينبغي للعالِم أن يرفق بالناس في التعليم، فلا يُعَرِّض عقولَهم لسماع ما تنكره من قبل أن يتيقَّن قوة عقولهم لدفع الشبهة، وقبول الحجة، وإلَّا عَرَّضَهم للتكذيب .[2]

قال ابن عبد البر:طلب العلم درجات ومناقل ورُتب لا ينبغي تعدّيها، ومن تعدّاها جملة فقد تعدّى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدّى سبيلهم عامداً ضلّ، ومن تعدّاه مجتهداً زلّ ، فأول العلم حفظ كتاب الله عز وجل وتفهُّمه، وكل ما يعين على فهمه فواجبٌ طلبه معه ،ولا أقول إنَّ حفظه كله فرض، لكن أقول إنَّ ذلك واجبٌ لازمٌ على من أحبّ أن يكون عالماً .[3]

قال ابن جريج :أتيتُ عطاءً وأنا أريد هذا الشأن، وعنده عبد الله بن عبيد بن عمير ، فقال لي عبد الله بن عبيد: قرأتَ القرآن؟ قلتُ : لا ، قال: فاذهبْ فاقرأِ القرآن ثم اطلب العلم ، قال: فذهبتُ فغبّرتُ زماناً حتى قرأتُ القرآنَ، ثم جئتُ إلى عطاء، وعنده عبيد الله بن عبيد فقال: تعلمتَ القرآن ؟ قلتُ : نعم، قال تعلَّمتَ الفريضة ؟ قلتُ: لا ، قال: تعلَّم الفريضة ، ثم اطلب العلم ،قال: فطلبتُ الفريضة ، ثم جئتُ ، فقال: تعلمتَ الفريضة؟ قلتُ: نعم ، قال: الآن اطلبْ العلم ،

قال فلزمتُ عطاءً سبع عشرة سنة.[4]

فلمَّا كان الطالب بين يدي مُعلِّمه، كالطفل في حِجر أمِّه، إذا قال له مُعلِّمه شيئًا التزمه ودان به؛ لوافر ثقته في معلِّمه ، لذا فمن أمانة المعلِّم في هذا الباب أن يسعى دوماً إلى ما فيه النفع لطلابه ؛ وذلك بأن يدرِّجهم في سُلَّم الطلب، فيُعطيهم ما ينفعهم في مرحلتهم ، فهذا هو العالم الربَّاني، الذي وُفِّق أن يُعلِّم طلابه ما يرتقون به.

---

[1] انظر: صحيح البخاري(24/1)،أما قول ابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرجه البخاري معلقاً قبل الحديث(68)، باب: العلم قبل القول والعمل ، وقال ابن حجر :وصله ابن أبي عاصم بإسناد حسن ، والخطيب بإسناد آخر حسن.
انظر : فتح الباري(198/1)

[2] انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح (1/ 268).

[3] انظر: جامع بيان العلم وفضله(1229/2)

[4] انظر: تاريخ بغداد (401/10)وتهذيب الكمال(346/18)

وهذا المعنى يُستقى من قوله تعالى{وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} **[الإسراء:106]**،ووجه الدلالة:أنَّ الله سبحانه وتعالى أمر في هذه الآية بأخذ القرآن على مكثٍ وتؤدة ، وهكذا أخذ العلم وتحصيله ، فينبغي أن يكون كذلك ، يبدأ بالأهم ، فالمهم .

قال الميموني: سألتُ أبا عبد الله : أيّهما أحبُ إليك ، يبدأ ابني بالقرآن أو بالحديث؟

قال: لا؛ بالقرآن، قلت: أعلِّمه كله؟ قال: إلَّا أن يعسر فتعلِّمه منه، ثم قال لي: إذا قرأ أولاً تعوَّد القراءة ، ثم لزمها، قال ابن مفلح معلِّقاً :وعلى هذا أتباع الإمام أحمد إلى زمننا هذا ".[1]

فطالب العلم أول ما يعتني به هو القرآن: تلاوةً ، حفظًا، فهمًا، تدبّرًا:

وهذا الأصل الذي هو بدء الطالب بحفظ كتاب الله عزوجل مما أطبق عليه أئمة وجماهير السلف ، قولاً وعملاً ، حتى صار إجماعاً عبر عصور الأمة ، فقد كان أئمة السلف وعلماؤها إذا أتاهم الأحداث ، وهم صغار الطلّاب، يأمرونهم ألّا يحصّلوا شيئاً من العلم حتى يُكملوا حفظ القرآن.

قال النووي:وكان السلف لا يعلِّمون الحديث والفقه إلَّا لمن حفظ القرآن ، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه اشتغالًا يؤدي إلى نسيان شيءٍ منه ، أو تعريضه للنسيان .[2]

قال الوليد بن مسلم: كنَّا إذا جالسنا الأَوْزاعي فرأى فينا حدَثًا ، أي ولدًا صغيرًا ، قال: يا غلام، قرأتَ القرآن؟ فإن قال: نعم، قال: اقرأ: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء: 11]، فإن قال: لا، قال: اذهب تعلَّم القرآن قبل أن تطلب العلم .[3]

قال محمد بن الفضل: سمعتُ جدي يقول: استأذنتُ أبي في الخروج إلى قتيبة ، فقال:

اقرأ القرآن أولًا حتى آذن لك؛ قال : فاستظهرتُ القرآن، فقال لي: امكث حتى تصلّي بالختمة؛ ففعلتُ، فلمَّا عيَّدنا أذن لي .[4]

قال ابن الجوزي :قد كان السلف إذا نشأ لأحدهم ولدٌ ؛ شغلوه بحفظ القرآن وسماع الحديث، فيثبت الإيمان في قلبه.[5]

لو حدّثتُ أحداً، لحدّثتك :

قال أبو العيناء، قال:أتيتُ عبدَ الله بن داود، فقال: ما جاء بك؟ قلتُ: الحديث، قال: اذهب، فاحفظ القرآن ، قلت: قد حفظتُ القرآن ، قال: اقرأ: {واتل عليهم نبأ نوح ... } ،فقرأتُ العُشْر حتى أنفذته، فقال لي: اذهب الآن، فتعلَّم الفرائض، قلتُ: قد تعلَّمتُ الصلبَ والجَدَّ والكبَرَ ، قال: فأيُّما أقرب إليك: ابن أخيك، أو عمك؟ قلتُ: ابن أخي ، قال: ولِمَ؟قلتُ: لأنَّ أخي من أبي، وعمي من جدي ،قال: اذهب الآن، فتعلَّم العربية ، قلتُ: قد تعلَّمتها قبل هذين ، قال: فلِمَ قال عمرُ -يعني

---

[1] انظر: الآداب الشرعية(33/2)
[2] انظر : المجموع (38/1)
[3] انظر : تاريخ دمشق (187/35)
[4] انظر: تذكرة الحفاظ (209/2)
[5] انظر: صيد الخاطر(162/1) .

حين طعن-: يا لَلَه، يا لِلمسلمين، لمَ فتح تلك، وكسر هذه؟ قلتُ: فتح تلك - أي اللام- على الدعاء، وكسر هذه على الاستغاثة والاستنصار ، فقال: لو حدّثتُ أحداً، لحدّثتك.[1]

ولشيخ الإسلام ابن تيمية تفصيلٌ مهمٌ ، حيث سُئل رحمه الله: أيما أفضل،طلب القرآن أو العلم ؟

فأجاب: أما العلم الذي يجب على الإنسان عيناً ، كعلم ما أمر الله تعالى به ، وما نهى الله تعالى عنه فهو مقدَّم على حفظ ما لا يجب من القرآن ؛ فإنَّ طلب العلم الأول واجب وطلب الثاني مستحب ، والواجب مقدَّم على المستحب ،وأما طلب حفظ القرآن: فهو مقدَّم في التعلّم في حق من يريد أن يتعلم علم الدين من الأصول والفروع ؛ فإنَّ المشروع في حق مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن ؛ فإنه أصل علوم الدين.[2]

فإذا سألتَ: هل من دليل على أنَّ الطالب لا بد أن يبدأ بالقرآن؟

فالجواب:نعم، في حديث البخاري، أنَّ حُذَيْفَة رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

"أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ".[3]

ووجه الدلالة: أنَّ النبي ﷺ لمَّا ذكر العلم، رتَّبه فبدأ بالأهم ، ألا وهو كتاب الله عزوجل.

قال ابن حجر :في هذا الحديث إشارة إلى أنهم كانوا يتعلَّمون القرآن قبل السُّنن ، والمراد بالسنن ما يتلقّونه عن النبي ﷺ ، واجباً كان أو مندوباً .[4]

وقال ابن عبد البر:طلبُ العلم منازلُ ورتب، من تَعَدّاها، فقد تَعَدّى سبيل السَّلف ، وأوّلُ العلم: حِفْظُ الكتاب وتفهُّمُه ".[5]

وأقول: خُذ هذه همسةً في أُذنك: لا تنسَ نصيبك من تفسير القرآن ، ولو بمعرفة الميسَّر من معاني الكلمات ، كلمات يسيرة على هامش الصفحة .

قال الطبري: "عَجِبتُ لمن يقرأ القرآن، ولا يفهم معانيه، كيف يَلتذ به ؟![6]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :العادة تمنع أن يقرأ قومٌ كتاباً في فنٍ من العلم ،كالطب والحساب ، ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم ، وقيام دينهم ودنياهم؟![7]

وعلم التفسير من أهم العلوم التي ينبغي لطالب العلم العناية بها ؛ إذ إنَّ شَرف العلم بشرف المعلوم، ولا شيء أشرف منزلةً من كلام الله تعالى.

---

[1] انظر: سير أعلام النبلاء(351/9) قوله:" تعلمتُ الصلب والجد والكبر": أي: مسائل الفرائض الكبرى.
[2] انظر: مجموع الفتاوى(54/23)
[3] متفق عليه.
[4] انظر: فتح الباري (40/13)
[5] انظر: جامع بيان العلم وفضله(129/2)
[6] نقل ذلك ياقوت في معجم الأدباء(63/8)
[7] انظر: مجموع الفتاوى(177/7) قوله : "ولا يستشرحوه" ، أي: يطلبوا شرحه وتعلمه.

وتأمَّل في ما قاله شيخ الإسلام في آخر حياته ، حينما ندم أنه لم يجعل جُلَّ أوقاته في القرآن، يقول رحمه الله:قد فتح الله تعالى علَيَّ في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن.[1]

ولا شك في أهمية هذا الباب؛ فإنّ الأصل في القرآن التدبر والفهم ، كما قال تعالى{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} **[ص: 29]** ، فكيف تتدبّر كلامًا لا تفهمه؟!

***ثم قال المصنف بعد ذلك: "ومن العلوم الشرعية، وما يُعين عليها من علوم العربية"**

ومن لطيف كلام المصنِّف: أنه يشير إلى أنّ علوم اللغة العربية ليست غايةً، بل وسيلة تُعينك على الطلب، لقوله:"يعين عليها من علوم العربية"، وقد سبق قريباً الكلام عن أهمية النحو واستقامة اللسان في طريق طالب العلم بما يغني عن إعادته.

نعود إلى كلام المصنِّف، حيث قال:

" إن على طالب العلم أن ينتقي من مصنَّفات الفن الذي يشتغل به أحسنَها، وأوضحَها، وأكثرَها فائدة ، ويجعل جُل همه واشتغاله بذلك الكتاب حفظاً عند الإمكان ، أو دراسة تكرير ، بحيث تكون المعاني معقولة له محفوظة ، ثم لا يزال يكرر ما مرَّ عليه ويعيده ..

لا شك أنَّ الطالبَ بحاجةٍ إلى أن يُحسن انتقاء كتبه من المكتبة الإسلامية ، فاليومَ الأمرُ قد اختلف تمامًا من حيث التحقيق وخدمة الكتب.

للأسف، فقد رأينا كثيرًا من الدور في الفترات الماضية كانت لا تهتم بالتحقيق المتقَن في إخراج الكتب العلمية ، أمَّا الآن، فالأمر قد اختلف نوعاً ما ؛ فهناك طبعاتٌ محقَّقةٌ، منقَّحةٌ، يُقال عنها: "طبعةٌ مزيدةٌ منقَّحةٌ محقَّقةٌ"، تحوي الفوائد العظيمة.

لذا فالطالب عند شرائه للكتب لابد أن يتأنّى في اختيار الكتاب والطبعة والتحقيق ، فإنه مما يُنعم الله تبارك وتعالى به على الطالب: أن يجمع مكتبة قيّمة ، يُحسِن فيها اختيارَ كل كتاب، وينتقي أحسن طبعاته، وتحقيقاته.

فائدة:

في مسألة حسنِ انتقاء الكتب ، أو المتون قد ترى كتابًا أو منظومةً أو متنًا مفضولاً ؛ فيه بعضُ الأوهام والاستدراكات، ولكن الله تعالى كتب له القبول، وصار له الكثير من الشروحات والتطبيقات والخدمات العلمية ، لذا فعليك أن تستفيد مما حصل لهذا المتن من خدمة أو شرح أو تحقيق.

مثال ذلك:

[1] نقله عنه ابن عبد الهادي في العقود الدرية ص (44)، وابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (4/ 519)، ويراجع لمزيد ذلك: "مدخل إلى علوم الشريعة " للدكتور: عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل.

ترى مثلاً متن أبي شجاع في الفقه الشافعي، قد خالف المعتمَد في مذهب الشافعي في مسائل عديدة ، بل من المعاصرين من صنَّفاً في الاستدراك على هذا المتن، كرسالةً : "أبو شجاع: المواطن التي خالف فيها المعتمد عند الشافعية" ،التي ألَّفها "أيمن محمد هاروش"،ومع ذلك، فقد شُرِح هذا المتن كثيرًا، ونُظِمت عليه منظومات عديدة ، وذاع وانتشر، مع كونه ليس الأفضل، ولكن كتب الله تعالى له القَبول.

الخلاصة:

أنت كطالب علم، حين تعمل على متنٍ عليه شروحٌ وتعليقاتٌ وتحقيقاتٌ، فهذا أنفع لك، من أن تأتي إلى كتابٍ مهجورٍ، فتقوم على دراسته.

ثم قال المصنِّف :على المعلِّم أن ينظر إلى ذهن المتعلِّم، وقوة استعداده أو ضعفه ، فلا يدعه يشتغل بكتاب لا يناسب حاله .....":

والمعنى: أن يراقب المعلِّمُ أذهانَ المتعلِّمين والطلاب ؛ فإنَّ العبرة ليست بحضور الأبدان، إنما العبرة بحضور القلوب والأذهان ؛قال تعالى(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)(ق:37) ، وقال عزوجل(نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ)(الشعراء193-194) ، فجعل سبحانه محل النفع ما وعاه القلب ، لا ما طرَق السمعَ.

فقد يحضر عندك الكثيرُ من الطلاب، لكنهم ما بين منشغلٍ بشاغل، أو نائمٍ، أو غافل.

ولأنَّ هذا العلمَ عظيم ، فلا يُعطى لأيِّ أحد؛ فإنَّ من تعظيم شعائر الله تعالى ، أن تُحسن – أيّها المعلِّم – اختيارَ مَن تُعطيه هذا العلم.

فأنت في أمور الدنيا لا ترضى أن تُعطي جوهرةً لمن لا يستحقُّها، فكيف بعِلمٍ هو من أعظم ما يُتعبَّد به لله تعالى؟!

لذا يجب على المعلِّم أن يُلاحظ ذهن الطالب، وقُدرته على الفهم، واستقبال ما يُلقى إليه.

فالطلاب درجات: فمنهم المبتدئ، ومنهم المتوسِّط، ومنهم المميِّز ، لذا فمن الحكمة أن يعرفَ المعلِّمُ نوعَ الوعاء الذي يضع فيه علمه ،يعني: أن يعلم مدى فَهْم الطالب، وقُدرته، واستعدادَه الذهني.

فإنَّ من قِلَّة النُّصْح أن يُشغِل المعلمُ الطالبَ بكتابٍ لا يُناسب حاله ، بل قد يكون ذلك من الغِش، ، **فليس كل ما يُعرف يُقال**، ومعنى هذه القاعدة يُستقى من دلائل عدة ، منها:

حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه : أَنّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال لمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه : "مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ" ، فقَالَ معاذ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟

قَالَ: (إِذًا يَتَّكِلُوا)، وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا.[1]

وقد ترَّجم البخاري في صحيحه لهذا لحديث، حديث معاذ رضي الله عنه ، فقال :

باب من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم ؛ كراهية ألَّا يفهموا ، ثم روى تحته أثر عليٍّ – رضي الله عنه – أنه قال:"حدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتحبُّون أن يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه؟"[2]

وفي هذا الأثر دلالة أنه يجب أن يَخص بالعلم قومًا لما فيهم من الضبط وصحة الفهم، ولا يبذل المعنى اللطيف لمن لا يستأهله من الطلبة ، ومن يخاف عليه الترخّص والاتكال لقصير فهمه .[3]

نقول ذلك:

لأنَّ بعض الطلاب، بدافع حُبِّهم للخير، قد لا يُحسنون معرفة: متى يُقال الكلام، ولمن يُقال ، فلكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ حادثٍ حديث.

عَنْ عَبد اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ:" قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْتِرُوا يَا أَصْحَابَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يُحِبُّ الْوِتْرَ ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا يَقُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ ﷺ: " لَيْسَ لَكَ، ولَا لأَصْحَابِكَ."[4]

وقال أَبِو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه :"حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ"[5]. والمراد به الأحاديث المخبرة عمَّا سيقع من الفتن ، ونحوها.

فقد يكون طالبُ العلم حديثَ عهدٍ بطريق الطلب، فتأتِيه مسألةٌ في الصفات، مثلاً ، فلا يفهمها، بل يُنكرها، فيكون معلِّمه مَن حمل إثمَه ، لذا فقد كره مالك تحديث العوام بأحاديث الصفات.[6]

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً ".[7]

---

[1] متفق عليه.
[2] أخرجه البخاري(127)
[3] نقله ابن بطال عن المهلب في شرحه لصحيح البخاري (1/ 207).
[4] أخرجه أبو داود (1417)، وابن ماجه (1170)، وصححه الألباني.
[5] أخرجه البخاري(120)
[6] ينظر: فتح الباري (1/ 225).
[7] أسنده الإمام مسلم في مقدِّمة صحيحه(11/1)

واعلم أنَّ هناك فرقًا بين "الدرس المعلوماتي"،و" الدرس المنهجي":

فأما الأول فقد يُعجبك لكثرة ما فيه من الفوائد والمعلومات، لكن لا يُفيدك على المدى البعيد ،إن لم يكن مُنضبطًا بمنهج.

فالدرس المعلوماتي قد يملؤك انبهارًا، وتخرج منه بمعلومات عن الصلاة، والصيام، والزكاة... لكن بدون بناء منهجي سليم .

فأما الدرس المنهجي لطالب العلم فله ضوابط ، من أهمها أن يكون الكتاب الذي تدرسه مناسباً لمرحلتك العلمية التي أنتَ فيها ، وليس لمجرد أنك معجب بالكتاب ، مثلاً، أو لأنه يُشرح ، فمررتَ فجلستَ.

قول المصنِّف: " فإن القليلَ الذي يُفهَم ويُؤخَذ، خيرٌ من كثيرٍ هو عُرضةٌ لعدم الفهم :

وهذه مسألة مهمة ، وهي أنَّ العبرة ليست بكثرة المسائل، إنما بمسألة أو مسألتين أو ثلاثٍ تفهمها، تُكرِّرها، تُتقنها، تُفرِّع عليها حتى تَرسَخ ، فهذا أكثر بركة من مسائلَ عدَّةٍ جمعتَها وما فَهِمتَها؛ فالعبرة ليست بالكثرة، إنما العبرة بما رسخ في فهمِك وذهنِك.

ودائمًا كان هديُ السَّلف في هذا الباب أنهم كانوا يُرفقون بالطالب، فلا يُكثرون عليه بالمسائل، بل يُراعون الأحوالَ والأوقاتَ والأزمنة.

بمعني: أنه لا يأتي في زمنٍ قليلٍ ويعطيه مسائل كثيرة ، ويقول: "انتهينا من الكتاب"، فهذا انتهاءٌ صُوري، ما هكذا يكون حال شأن المعلِّم مع طلابه.

فقد كان من شأن النبيِّ ﷺ مراعاة الأفهام ، فكان ﷺ يُكرِّر الكلام على مهل، ونذكر من ذلك :

ما ورد عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَا يَسْرِدُ الْكَلَامَ كَسَرْدِكُمْ هَذَا، كَانَ كَلَامُهُ فَصْلًا يُبَيِّنُهُ، يَحْفَظُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ».[1]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: " أَنَّ النَبيَّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- كَان إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيهِم سَلَّمَ عَلَيهِم ثَلاَثًا." [2]

قال الملا علي القاري:«كان» النبي -صلى الله عليه وسلم- أي: غالبًا أو أحيانًا، «إذا تكلَّم بكلمة» أي: بجملة مفيدة، «أعادها» أي: كرَّرها «ثلاثًا حتى تفهم» أي: تلك الكلمة «عنه» أي: فهمًا قويًّا راسخًا في النفس، وفيه: إشارة إلى أنَّ المراد بالكلمة: الكلام الذي لا يُفْهَمُ إلَّا بالإعادة، يحتمل أن تكون في مجلس أو مجالس، والاقتصار على الثلاث -والله أعلم- بمقتضى مراتب فهوم الناس من الأدنى والأوسط والأعلى . [3]

---

[1] أخرجه البيهقي في "السنن الكبرى"(10245)، وأحمد (25077) باختلاف يسير، والترمذي (3639)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (4051). والحديث مروي في صحيح البخاري معلقاً(3567) ،وفي صحيح مسلم (2493)، مقتصراً على قول عائشة رضي الله عنها: (إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ.)

[2] رواه البخاري(95)

[3] انظر: مرقاة المفاتيح(291/1)

وقال الأزهري :والكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة واحدة مؤلَّفة من جماعة حروف لها معنى، وتقع على قصيدة بكمالها، وخطبة بأسرها. [1]

فعلى المعلِّم حينما يُلقي المسائل أن يُراعي الفُروق الفردية بين طلَّابه ؛ فليس كلُّ الطلاب في عُمرٍ واحد، ولا في فَهْمٍ واحد، ولا في قُدراتٍ متساوية ، وليست الفُهومُ واحدة، وليست العُقولُ على درجة واحدة.

قال الخطيب البغدادي: ولا يأخذ الطالبُ نفسَه بما لا يطيقه، بل يقتصر على اليسير الذي يضبطه ويُحكم حفظه ويُتقنه.[2]

وقال شعبة : كنتُ آتي قتادة فأسأله عن حديثيْن، فيحدِّثني، ثم يقول: أزيدك؟ فأقول: لا ؛ حتى أحفظهما وأُتقنهما.[3]

قال يونس بن يزيد :قال لي ابنُ شهاب: يا يونس، لا تكابر العلم ؛ فإنَّ العلم أودية بأيِّها أخذتَ فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي ، ولا تأخذِ العلم جملةً ، فإنَّ من رام أَخْذَه جملةً ذهب عنه جملةً ، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي .[4]

وقليلٌ يبقى فينفع.... خيرٌ من كثيرٍ يُلقى فيُرفع.

وكذلك مما ينبغي أن يفعله المعلِّم:

أن يُكثر لطلابه من القواعد، لأنَّ القواعد تلملمَ شوارِدَ العلوم، وتُسهِّل حفظَها، لذا ترى الأئمة قد اهتموا بنظم القواعد؛ منظومة في الفقه، ومنظومة في الأصول، وغير ذلك.

وكان كثيرٌ منهم إذا أتى إلى متنٍ لأحد العلماء السابقين، وضعه في منظومة ، فإنَّ هذه المنظومات يَسهل على الطلاب أن يحفظوها، فتجمع لهم شَتاتَ المسائل.

قال العلَّامة السِعدي:

فاحرِصْ على فهمِكَ للقواعدِ ... جامعةِ المسائلِ الشَّواردِ

فتَرْتَقِي في العلم خيرَ مُرتَقَى ... وتَقْتَفِي سُبْلَ الذي قد وُفِّقَا.

ومن أمثلة العلماء الذين نظموا ذلك:

1-شهاب الدين محمد بن أحمد الخُوَيّي الشافعي (ت: 693 هـ) قد صاغ مقدِّمة شيخه ابن الصلاح في ألفيَّة سمَّاها : " أقصى الأمل والسُّول في علم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم".

---

[1] انظر: تهذيب اللغة(147/10)

[2] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(231/1)

[3] انظر: المصدر السابق(231/1)

[4] انظر: جامع بيان العلم وفضله (104/1).

2- الإمام الحافظ عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت : 806 هـ) الذي نظم "مقدِّمة ابن الصلاح" في منظومة سمَّاها "التبصرة والتذكرة" ، وهي منظومة عدد أبياتها (1002)، وقد ضمَّنها كتاب ابن الصلاح وتعقَّبه، وزاد عليه مسائل نافعة، ثم شرحها شرحاً قيّماً ، سمَّاه : "شرح التبصرة والتذكرة".

3-منظومة الإمام السيوطي المسمَّاه" : " نظم الدرر في علم الأثر "، والسُّيوطي قد نظم ما ذكره العراقي (يعني: مضمون ابن الصلاح وزيادة) وزيادات أخرى فاتته، كما قال:

فائقة ألفية العراقي .... في الجمع والإيجاز واتِّساق. [1]

ثم قال المصنِّف : "فلا يُنتَقَل من نوعٍ من أنواع المسائل إلى نوع آخر حتى يتصور ، ويُحقق السابق ":

والمعنى : أنَّ المعلِّم لا ينتَقِل بالطلاب بين المسائل انتقالاً سريعاً، بل لا بد أن يتدرج معهم في المنهج خطوة بخطوة ، وليكن حريصاً في ذلك على ربط الطلاب بكتب السلف ، فكلما كان العهد أقرب بزمن النبوة كانت البركة والرسوخ والإتقان.

قال محمد بن محمد المختار الشنقيطي :

كان الوالد رحمة الله عليه كثيراً ما يوصيني، ويقول لي: أي علم تستطيع أن تأخذه من الأوائل فابدأ به؛ لأنه ليس من السائغ أن يبدأ الإنسان بعلمه من الأواخر.[2]

ففي التدرج العقدي :

ينبغي أولاً على المعلِّم أن يُعلِّم طلابه أنهم مهما تزوّدوا من علوم الشرع فلن يجدوا زاداً خيراً ولا أنفع ولا أنبل من علوم الاعتقاد ، ذلك العلم الذي كفى به شرفاً أنه يعرِّفك بربك العظيم .

ولا شكَّ أنَّ أعظم زادٍ يلقى به العبدُ ربَه- تعالى- يوم القيامة إنما هو صحة الاعتقاد في الله- تعالى- وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخِر ، والقدَرِ ، خيره وشرّه.

فمقام العقيدة مقام عظيم وخطير، فكم زلّت فيه أقدام، وضلّت عنه أفهام، وتشعبت فِرَق بسبب سوء الفهم واتباع الهوى.

قال ابن القيّم: وهل أوقعَ القدَريّةَ والمُرجئةَ والخوارجَ والمعتزِلةَ والجَهْميةَ والرافضةَ وسائرَ الطوائف أهل البدع إلّا سوءُ الفَهم عن الله ورسوله؟ حتى صار الدين بأيدي أكثر الناس هو موجَب هذه الأفهام".[3]

ولمَّا ذكر القُرطبي مسألة مهمة من مسائل إفراد الله- تعالى- بالعبادة، قال- رحمه الله:

---

[1] يراجع الأمثلة وزيادة عليها " التحديث بقواعد علم الحديث(ص/25) للمصنف.
[2] منقول من تفريغ دروس شرح زاد المستقنع، على المكتبة الشاملة.
[3] انظر: الروح (ص /63).

"وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه؛ لأنَّ جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهمْ ذلك".[1]

لِذا الواجبُ على كل مسلم أن يتعلَّم ما يُصلح به عقيدتَه، ولمَ لا؟ وهي رأس ماله ، وخير زاده في مسيره إلى الله تعالى،قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد: 19].

قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)} [الشعراء: 88 - 89] ،قال مُجاهِد والحسَن: {بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} يعني: من الشرك. قال أبو عثمان النيسابوري:

"هو القلب الخالي من البدعة، المطْمئن إلى السنة".[2]

والواجب على المعلِّم أن يتدرج مع طلابه درجات سُلَّم الاعتقاد درجة درجة ، فيبدأ مع طلابه بالمتون اليسيرة ، مثل "الأصول الثلاثة"، و"القواعد الأربع"، ثم "كتاب التوحيد"، بشروحه وحواشيه ،وثلاثتهم للإمام محمد بن عبد الوهاب، ثم "الواسطية"، لشيخ الإسلام ابن تيمية ،ثم يأتي بعد هذه المراحل إلى شروحات: الحموية ، والتدمرية ،لمعة الاعتقاد، والطحاوية .

وينبغي للطالب أن يدرس هذه الكتب على يدي شيخ يثق في ديانته ومعتقده ، فإنَّ الأمر كما قال ابن سيرين : "إنَّ هذا العلم دِين ؛ فانظروا عمَّن تأخذون دِينكم" .[3]

وفي التدرج الفقهي :

لو كان على مذهب الحنابلة مثلاً ، فيبدأ مثلاً بمتن "أخصر المختصرات" ، أو " عمدة الطالب" ، ثم "دليل الطالب لنيل المطالب"، ثم " زاد المُستَقنِع في اختصار المقنِع"، ثم " منتهى الإرادات" ، ثم كتاب" الإنصاف ".[4]

وكما سبق ذكره ، فينبغي للطالب أن يدرس هذه الكتب على يدي شيخ فقيه متقن ؛ وربمّا وجد صعوبة في دراسة الكتاب الأول منها ، ثم سيَسهل عليه الأمر جدًا في الكتب الأخرى ؛لما بين هذه الكتب من التداخل والتكرار ، وهو مفيدٌ جدًا في تصوّر المسائل وتثبيتها في الذهن.

أما أن يأتي الطالب وهو لا يزال في البدايات، فيدرس كتاباً في الفقه المقارَن ، فهذا خَطَأٌ بَيّن ،بل هو ذبحٌ للطالب بغير سكين ؛ فحال الطالب هنا كحال من يريد أن يصعد إلى سطح البناية، وهو لم يرتقِ أول درجة من درجاتها.

وفي التدرج الحديثي :

البدء بدراسة" متن التذكرة" لابن الملقن ، وشرحها " التوضيح الأبهر"، للسخاوي، أو نظم البيقونية ،بشروحها ، مثل "شرح المنظومة البيقونية"، للشيخ العثيمين، أو"اللُّمع البهيَّة بشرح

---

[1] انظر الجامع لأحكام القرآن (14/ 17)

[2] انظر :جامع البيان في تأويل القرآن (19/ 366)، وتفسير القرآن العظيم (6/ 150).

[3] أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح (1/ 14)

[4] يراجع في ذلك للأهمية : مدارج تفقه الحنبلي ،للشيخ أحمد بن ناصر القعيمي، وهو كتاب مهم يرسم لمنهج التفقّه على المذهب الحنبلي ، وفيه إطلالة على عمد مؤلفاته.

البيقونية"، للعلَّامة المحدِّث أبي محمد أحمد بن شحاته الألفي السَّكندري ، ثم متن "اختصار علوم الحديث" للإمام ابن كثير ، وقد شرحه الشيخ أحمد شاكر في كتابه "الباعث الحثيث" ، ثم مقدِّمة ابن الصلاح.

ثم مَن أراد التزوّد فتأتي مرحلة المتقدِّمين ، وذلك في متن " نخبة الفِكَر "للإمام ابن حجر العسقلاني ، وإن كان مع شرح ابن حجر للنخبة المسمَّى بنزهة النظر فهو جيد ،مع حفظ متن نخبة الفكر إن تيسَّر ذلك ، ثم متن الموقظة للإمام الذهبي.

وفي التدرج الأصولي :

يبدأ بمتن صغيرمثل "الورقات" ، للإمام الجويني بشرح المحلي ،ويُحفظ معها نظمها للعمريطي ، المسمَّى " تسهيل الطرقات إلى نظم الورقات"، ثم " مختصر التحرير"، لابن النجَّار ، وإن وجد صعوبة في هذا الأخير استَبدله بالروضة للطوفي ، المسمَّى (البلبل) ،مع شرحه لمؤلِّفه ، ثم "المستصفى" للغزالي .

وفي التدرج اللغوي:

فيبدأ بمتن يسير يستقيم به لسانه عن اللحن ، مثل أن يبدأ بمتن يسير مثل الآجرومية للصنهاجي، بشرح فيصل بن مبارك ، مع نظمها للعمريطي"الدرة البهية"، ثم إن أراد الاستزادة ثنَّى بالتحفة السنية لمحمد محيي الدِّين عبد الحميد، أو شرح الشيخ ابن عثيمين، وإن أراد الاستزادة درَس "قطر الندى"، أو" شذور الذهب".

وكذلك لا غنى له أن يضرب بسهم في حفظ متون السنة المباركة :

فيحفظ (الأربعين النووية)؛ لأنها أحاديث جوامع وقواعد كلية تدورعليها أصول الشريعة، فلا بد من حفظها وفهمها وقراءة شروحها ، ثم يحفظ " عمدة الأحكام " للحافظ عبد الغني المقدسي في أحاديث الأحكام، وكلها أحاديث منتقاة من الصحيحين، ثم بعد ذلك يحفظ " بلوغ المرام" ، لابن حجر،أو " المحرَّر" على حدٍّ سواء، ولئن فاق المحَرّرُ متانةً ، فقد فاق البلوغُ خدمةً.

تنبيه مهم:

العبرةُ في طلب العلم ليستْ باختيار كتاب معينٍ أو تسلسل معين مِن الكتب، وإنما العبرةُ بالمنهجيَّة التي يسلكها الطالبُ أثناء الطلب؛ وهذه المنهجيةُ معناها الضوابط العامة التي يجب أن يلتزم بها الطلب؛ مثل: الحفظ، التفهُّم، التدرُّج، الترسيخ، التطبيق، الربط بباقي العلوم.

هكذا يكون التدرج في طلب العلم...

يبدأ المتعلِّمُ بحفظ كتاب الله عز وجل، ثم يحفظ من كل فنٍّ متناً مختصراً، ثم يطلب شرح تلك المختصرات على المتخصِّصين، ثم ينتقل بعد التأهيل إلى المطالعة والبحث في المبسوطات.

أما حال كثير من المتعلِّمين اليوم فهو عكس ذلك، حيث تجد كثيراً منهم لم يثنِ رُكَبَه عند شيخٍ ، ولا أنهى حفظ متن من أساسيات العلم، ومع ذلك فهو لا يطالع ويقرأ أو يبحث إلَّا في المطوَّلات والمبسوطات، ثم فجأة يتصدَّر للتأليف والفتوى، فيأتي بالعجائب والغرائب.

فالشاهد مما سبق :

لابد أن تبدأ، وتُقدِّم الأهمَ على المهم ، وهذا واجبٌ في فقه التعامل مع الطلب، تجعل الطالب يَنبتُ نباتاً حسناً ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران : 79] : " حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ" ،وقال البخاري: ويقال " الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ".[1]

فلمَّا كان الطالب بين يدي مُعلِّمه، كالطفل في حِجر أمِّه، بمعنى : إذا قال له شيئًا، التزم الطالبُ به ، لذا فمن أمانة المعلِّم : أن يُقدِّم نفع طلابه ، وأن يُعطيهم ما ينفعهم، فهذا هو العالم الربَّاني، الذي وُفِّق أن يُعلِّم طلابه ما ينفعهم في المرحلة التي هم فيها.

إنَّ الصغيرَ إذا أُعطِي طعامٌ لا يُناسبُه، قد يتضرَّر، فكيف إذا قُدِّم له طعام الشخص الكبير ؟!

قال ابن القيم عن قوله ﷺ :" إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ":

فِيه تَنْبِيه لأهل الْعلم على تربية الأمة كَمَا يربّي الْوَالِد وَلَده ، فيبربونهم بالتدريج والترقّي من صغَار الْعلم إِلَى كباره ، وتحميلهم مِنْهُ مَا يُطِيقُونَ ، كَمَا يفعل الأبُ بولده الطِّفْل فِي إيصال الْغذَاء إليه ؛ فَإِنَّ أرواح الْبشر بِالنِّسْبَةِ إلى الأنبياء وَالرسل كالأطفال بِالنِّسْبَةِ إلى آبَائِهِم ، بل دون هَذِه النِّسْبَة بِكَثِير.[2]

<u>فائدة:</u>

لا شك أنَّ طريق الطلب ليس بالسهل اليسير ، بل هو طريق وعِر ، يحتاج إلى صبر ومصابرة ، قال تقي الدين السُّبكي:والعلم صعب لا ينال بالهوينا ،وليست كل الطباع تقبله ، بل من الناس من يشتغل عمره ولا ينال منه شيئاً ، ومن الناس من يُفتح عليه في مدة يسيرة، وهو فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء".[3]

فالعلمُ فيه صعوبة، ولو كان سهلًا يسيراً ، لكثُرَ سالكوه ، لكنَّ الأمرَ اصطفاءٌ واختيارٌ ،{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [القصص: 68].

ولصعوبة هذا الطريق فلا بد لسالكه من الصبر عليه ، والصبر في طريق العلم نوعان:

1. صبر الطالب.

2. صبر المعلِّم .

وأما صبرُ الطالب فهو نوعان:صبرُ الطالبِ على تحصيل العِلم ،وصبرُه على ملازمة المعلِّم.

---

[1] انظر: صحيح البخاري(24/1)،أما قول ابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرجه البخاري معلقاً قبل الحديث(68)، باب: العلم قبل القول والعمل ، وقال ابن حجر :وصله ابن أبي عاصم بإسناد حسن ، والخطيب بإسناد آخر حسن. انظر : فتح الباري(198/1)

[2] انظر: مفتاح دار السعادة(180/1)

[3] انظر: فتاوى السبكي(499/1)

أما صبرُ الطالبِ على تحصيل العِلم :

فأنتَ كطالبٍ مأمورٌ بالصبر حال رحلة الطلب، كما في قول موسى للخضِر عليهما السلام {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [الكهف: 69]

قال ابن القيم : سمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله رُوحه يقول:

بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين، ثم تلا قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤].[1]

ومِن بديع ما سطَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا المعنى قوله :

إنَّ الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت ، قال تعالى(فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) [الروم: 60] .[2]

ومما يحصّل به الطالبُ العلمَ :

الدعاء، والتضرّع، وصدق اللجوء إلى الله تبارك وتعالى ، فإنما يحصل للطالب الاستمرار بقدر ما في قلبه من الافتقار ، والذلِّ لله تعالى بالسؤال ، فإذا رأى الطالب نفسه فهذه بداية الصعود إلى الهاوية .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ربما طالعتُ على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله تعالى الفهم؛ وأقول: يا معلِّم آدم وإبراهيم علّمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى؛ وأقول: يا معلِّم إبراهيم فهمني.[3]

وقال ابنُ القيم عن شيخه ابن تيمية: "إنه إذا أشكلت عليه مسألة، استغفر اللهَ ألفَ مرة، أو أكثر، فيُفتَح عليه".

نعم ، إنَّ الاستغفار والصلاة على النبي ﷺ ، من أعظم أسباب الفتح في العلم .

ولا تنس نصيبك من الليل:

فيقبح بطالب العلم أن يكون غافلاً في سَحَرِ الليل ، عن عاصم بن عصام البيهقي قال:

بِتُّ ليلةً عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه، فلمَّا أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله! رجلٌ يطلب العلم لا يكون له وِرْدٌ مِن الليل![4].

قلت :وهذا المعنى الذي ذكره الإمام أحمد ، يُستقى شِربُه من قوله تعالى :

---

[1] انظر: مدارج السالكين في منازل السائرين(449/2)
[2] انظر :جامع المسائل(260/3)
[3] انظر: العقود الدرية(ص/42)
[4] انظر: مناقب الإمام أحمد(ص/273)

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ (1) قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا(2) نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا (3)أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا (4)إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا (5)إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا)(المزّمّل 6:1)

والشاهد من هذه الآيات:

أنَّ الله عزوجل لمَّا أخبر نبيَّه ﷺ بهذا الحدَث الجلل ، الذي هو نزول علوم الشرع وأحكامه ، فقد حثَّه أن يستعين على هذا بلزوم وقت السحَر ، تضرّعاً وقياماً ، فالعلم ليس بالأمر السهل، بل هو طريق شاق ، ولكن من عرِف قيمة ما يطلب، هان عليه ما يبذل .

قال أبو هلال العسكري : من عرف العلم وفضله، لم يقض نهمته منه، ولم يشبع من جَمعه طول عمره .[1]

ثالثًا :من سبل تحصيل العلم: تقوى الله عزوجل:

فبقدْر تقوى العبد لربه تعالى بقدر ما يُفتح عليه من الفهوم والعلوم ما لم يكن يعلم ، قال عزوجل (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ)(البقرة:282) ،وقال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا)(الأنفال:29)

وليعلَمْ أنَّ العلم والتقوى متلازمان، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} (فاطر:٢٨]، ،فكلّما زاد علم الإنسان زادت تقواه ، والعكس بالعكس، لذا فإذا ازداد علم المرء ثم لم يجد في قلبه أثارة من تقوى فليبحث عن دواءٍ لقلبه ، فالعيبُ بلا ريبٍ في قلبه هو ؛ فإنَّ ميراث النبوة معصوم ، وأثره في شفاء القلوب معلوم.

قال ابن كثير عن قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} (فاطر:٢٨]:

أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم ، والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .[2]

قال ابن رجب:العلم النافع هو ما باشر القلب ، فأوقر فيه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنتْ هذه الأشياء في القلب خشع، فخشعت الجوارح كلها تبعًا لخشوعه.[3]

وأما مَن ركن إلى المعاصي، واستمرأ الذنوب فعاقبة أمره أن يعاقب بنسيان ما تعلَّم، ويُصدُّ عن السبيل ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه:إني لأحسبُ العبد ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها .[4]

---

[1] انظر: الحث على طلب العلم (ص/٥٩)
والنهمة بالسكون : بلوغ الهمة في الشيء ،ونهما : زادت رغبته في العلم. انظر:المصباح المنير (ص ٦٢٨ - ٦٢٩) .
[2] انظر: تفسير القرآن العظيم(482/6)
[3] انظر: ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء(ص/19)
[4] أخرجه الدارمي في مسنده (388)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (1/ 675) ، وانظر: مدخل إلى علوم الشريعة(ص/16)

وقال ابنُ حبَّان : وإنَّ من أجود ما يستعين المرء به على الحفظ الطبع الجيد مع الهمة، واجتناب المعاصي.[1]

ومما يُروى في هذا الباب ما يُذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي *** فأرشدني إلى تركِ المعاصي

وأخبرني بأنّ العلمَ نورٌ *** ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

التحقيق العلمي للقصة:

هذه القصة نُسبت إلى الإمام الشافعي، لكن التحقيق يدل على أنها ليست ثابتة عن الإمام الشافعي، لعدة أمور ليس هذا محل بيانها ، بل الأرجح أنَّها وقعت لعلي بن خُشرُم، أحد طلاب وكيع بن الجراح، حيث قال:

مَا رَأَيْتُ بِيَدِ وَكِيْعٍ كِتَاباً قَطُّ، إِنَّمَا هُوَ حِفْظٌ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ أَدوِيَةِ الحِفْظِ ، فَقَالَ رحمه الله :

إِنْ عَلَّمْتُكَ الدَّوَاءَ، اسْتَعْمَلتَه ؟ قُلْتُ : إِيْ ،وَاللهِ ، قَالَ: تَرْكُ المَعَاصِي، مَا جَرَّبْتُ مِثْلَهُ لِلْحِفْظِ .[2]

تنبيه مهم:

والكلام هنا لا يعني أن يكون طالب العلم معصوماً من الزلل، لا يعصي الله تعالى طرفة عين ، فهذا لا يسلم منه أحدٌ ، فمن ذا الذي له الحسنى فقط ، ومن ذا الذي لم يزلّ قط ، وإنما المراد من الكلام أن يتقي طالبُ العلم ربَّه تعالى ما استطاع، وأنه كلما أذنب تاب واستغفر وأناب ، فلا يكون منغمساً في المعاصي والذنوب ، يبدو للناس تقيّاً ، وفي خلواته تراه للشيطان ولياً ، فهذا ليس من صفات مَن اصطفاهم الله تعالى لحمل ميراث النبي صلى الله عليه وسلم.

[1] انظر: روضة العقلاء (ص/39)
[2] انظر: سير أعلام النبلاء(151/9)

النوع الثاني: الصبر على المعلِّم:

وكما أنَّه على الطالب الصبر على مشقة العلم، فعليه أيضًا أن يصبر على طريقة معلِّمه، والتلطُّف معه، وخفض الجناح له ، والتماس أنسب أوقات المعلِّم حين يسأله.

فهذه سنة السلف مع علمائهم ، وكبرائهم ، والواقع والوقائع على ذلك شهود ، ومن ذلك :

ما ذكره ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَبِثْتُ سَنَةً وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ رضي الله عنه عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَجَعَلْتُ أَهَابُهُ، فَنَزَلَ يَوْمًا مَنْزِلًا، فَدَخَلَ الْأَرَاكَ، فَلَمَّا خَرَجَ سَأَلْتُهُ، فَقَالَ رضي الله عنه: " عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ "، رضي الله عنهما . [1]

تأمل : سنة كاملة وابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يريد أن يسأل عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه عن مسألة ويهاب ذلك ، ففي هذا دليل على صبر الطالب على الطلب، وعلى استحباب أن يلتمس الطالب خلوات العالِم ليسأله.

وهذا أدب ينبغي أن يتحلَّى به طالب العلم، وليس كلما ظهر له سؤالٌ جاء معلِّمه وسأله، دون أن يراعي أحوال شيخه ،فهذا ليس من الأدب، إنما ينبغي عليه أن ينظر إلى خلواته، فإذا رآه وحده، أو رآه منبسطاً، أقبل عليه وسأله .

قال الخطيب : وإذا وجده نائماً لا يستأذن عليه ، بل يصبر حتى يستيقظ أو ينصرف ، والاختيار الصبر، كما كان ابن عباس رضي الله عنهما والسلف يفعلون. [2]

وذلك لأنَّ الهجوم المستمر على الشيخ يضجِّره من الطالب ، ولا مانع حتى يرقق قلبه عليه أن يتطلف معه بين يدي السؤال،وأن يخطابه بألطف الخطاب؛ ولنا في رسول الله ، موسى عليه السلام أسوة حسنة، إذ يقول لصاحبه الخضر عليه السلام بأدبٍ جم ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: 66]

تأمّل: كيف أخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، بلسان حالٍ يقول:هل تأذن لي في ذلك ، أم لا؟ ،

وهذا الإمام النووي، كان يتأدَّب مع شيخه الكمال الإربلي، يقوم ويملأ له الإبريق ويمشي به قدّامه إلى الطهارة .

قال أيوب السختياني: كان الرجل يجلس إلى الحسن البصري ثلاث سنين فلا يسأله عن شيء هيبة له. [3]

---

[1] متفق عليه.
[2] انظر: المجموع شرح المهذب(38/1)
[3] انظر: فتح المغيث (268/3)

وهذا ابن حِبّان الذي كان ملازمًا لشيخه ابن خُزَيْمة سفرًا وحضرًا، لا يتركه ليلًا ولا نهارًا ، وفي إحدى أسفاره سأله ابن حبان عن مسألة، فقال له ابن خُزيمة: " تَنَحَّ عني يا بارد" ،

فكتبها ابنُ حبَّان ، فسُئل: " أتكتبُ هذا؟ "، قال: "لا يلفظ شيخي لفظاً إلَّا كتبته".[1]

وأخرج الخطيب في كتابه " شرف أصحاب الحديث" بسند ضعيف (ص/134) :

أنَّ الأعمش كان له كلب جعله عنده لئلا يهجم عليه طلاب الحديث ، فجاؤوه يوماً، وقد مات الكلب، فتكاثروا عليه ، فلما رآهم بكى، ثم قال: هلك من كان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر،وفي رواية قال الأعمش: لَوْ كَانَتْ لِي أَكْلُبٌ، كُنْتُ أُرْسِلُهَا عَلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ.[2]

وكان ابن جُريج قد لازم عطاء بن أبي رباح عشرين سنة، فاستخرج منه علمًا يُحمَل على ظهور الجمال ، وسرّ فوز ابن جريج بذلك ذكاؤه، ورغبته في خلوات شيخه، واغتنام صفاء الذهن عند شيخه .

العلم خزائن يفتحها حسن السؤال :

قال ابن شهاب الزهري: "إنما هذا العلم خزائن ، وتفتحها المسألة ".[3]، ومن تأمَّل هذه العبارة للإمام الزهري يعلم جيداً أنَّ رأس الأمر في كسب العلم إنما ينبني –بعد فضل الله تعالى-على حسن تعامل الطالب مع شيخه .

قال مطرف بن عبد الله اليساري:حدَّثنا مالك بن أنس قال: "كنت آتي نافعاً مولى ابن عمر رضي الله عنهما نصف النهار، ما يُظلني شيء من الشمس، وكان منزله بالنَّقِيع بالصُورِيْن، وكان فيه حدة ، فأتحيَّن خروجه ، فيخرج فأدعه ساعة ، وأُريه أني لم أُرده، ثم أعرض له فأسلِّم عليه، ثم أدعه حتى إذا دخل البِلاط"، أقول: "كيف قال ابن عمر رضي الله عنهما في كذا وكذا؟ فيقول قال: كذا وكذا، فَأَخْنس عنه".[4]

أما ابن أبي أُويس فلم يظهر له من نافع علم كثير، لأنه لم يصبرعلى شدّته ، أما مالك، فلزمه وخفض له الجناح ، فارتفع.

قيل لسفيان بن عيينة: إنَّ قومًا يأتونك من أقطار الأرض، تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك ؟ قال: هم حمقى إذن مثلك، أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خُلُقِي !.[5]

وقد بَوَّب الخطيب البغدادي في جامعه: باب «الرفق بالمحدِّث، واحتماله عند الغضب».[6]

---

[1] انظر: معجم البلدان (419/1)
[2] انظر: شرف أصحاب الحديث(ص/135)
[3] انظر: الفقيه والمتفقه(62/2)
[4] انظر : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك(132/1) وسير أعلام النبلاء(107/8)وتاريخ ابن عساكر (259/17)
وقوله: أخْنَس عنه: أتخلف وأتوارى عنه. (انظر: المعجم الوسيط 1/ 230. مادة: خَنَسَ).
[5]) أخرجه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي ومناقبه ص (158)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (1/ 223)
[6] انظر :الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (1/ 222).

اصْبِرْ عَلى مُرِّ الْجَفَا مِنْ مُعَلِّمٍ ... فَإِنَّ رُسُوبَ الْعِلْمِ فِي نَفَرَاتِه

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً ... تَجَرَّعَ ذُلَّ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِه

فمن ذلَّ طالبًا ، تعزَّز مطلوبًا.

"زد من الضرب، وزد في الحديث":

قال هشام بن عمَّار :دخلت على مالك، فقلت له: حدِّثني ، فقال: اقرأ ، فقلتُ: لا، بل حدِّثني ، فقال: اقرأ ، فلمَّا أكثرتُ عليه، قال: يا غلام، تعال اذهب بهذا، فاضربه خمسة عشر ، فذهب بي، فضربني خمس عشرة درة، ثم جاء بي إليه، فقال: قد ضربته ، فقلتُ له: لمَ ظلمتني؟ ضربتني خمس عشرة درة بغير جرم، لا أجعلك في حل ، فقال مالك: فما كفَّارته؟

قلتُ: كفَّارته أن تحدِّثني بخمسة عشر حديثاً ، قال: فحدَّثني بخمسة عشر حديثاً ، فقلتُ له:

"زد من الضرب، وزد في الحديث" ، فضحك مالك، وقال: اذهب.[1]

ولكن هنا تنبيه:

مع ما ذُكِر من آثار وأخبار في السِيَرعن شدة طباع بعض المعلِّمين ، وأنه ينبغي على طالب العلم أن يكون ذا صبرٍ وجلَدٍ على شدة معلِّمه ، لكن لا شك أنَّه في زمن الغربة وقلة المعين فليحرص كل معلِّمٍ أن يكون ليّن الجانب، سهل الطباع ، يراعي حال طلابه، ويصبرعلى سوء خُلُقهم ، وسوء فَهومهم.

فقد يبتلى المعلِّم بطالبٍ سيّئ الخُلق، أو ضعيف الفهم ، فلا ينبغي للمعلِّم أن يُهين الطالب أو يُحبطه، بل يصبر عليه ؛ فإنَّ فأشدَّ ما يُؤلم، وأعظم ما يُكسِر، أن يقول المعلِّمُ لطالبه ، مثلاً :

"يا فلان، ليس لك في باب الطلب" ، فهذا - وربك- ذبحٌ بغير سكين ، ووأدٌ لهذا الطالب المسكين ،الذي أجهز عليه شيخه في مهده .

فالعالِم رحمةٌ للناس ، أسوته في ذلك هو النبيُّ الخاتم ﷺ ، الذي قال تعالى في حقه (حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(التوبة:128)

فعلى المعلِّم أن يصبر على طلابه ، كما صبر النبي ﷺ على جفاء الأعراب ،وسَفِه الأغراب، ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة ، ومن وقائع ذلك :

ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بنُ مسعود رضي الله عنه قَالَ:

قَسَّمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قِسْمَةً ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا يُرَادُ بِهَا وَجْهُ اللهِ، عز وجل!! قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَحَدَّثْتُهُ ، قَالَ: فَغَضِبَ، حَتَّى رَأَيْتُ

[1] انظر: سير أعلام النبلاء(429/11)

الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ ﷺ : " يَرْحَمُ اللهُ تعالى مُوسَى عليه السلام ، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَصَبَرَ ".[1]

قال النووي :

ينبغي على المعلِّم أن يشفق على الطالب ،ويعتني بمصالحه كاعتنائه بمصالح ولده ومصالح نفسه ، ويجري المتعلِّمَ مجرى ولده في الشفقة عليه والصبر على جفائه وسوء أدبه ، ويعذره في قلة أدبه في بعض الأحيان ؛ فإنَّ الإنسان معرَّض للنقائص ،لا سيَّما إن كان صغير السن.[2]

وتأمّل يا معلِّم الناس الخير :

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ:

« بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ!

فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ.[3]

وانظر إلى الأعرابي الذي بال في المسجد، فلو أنَّ رجلًا فعل ذلك اليوم، لدُفِن في مكانه!

ومع ذلك فإنَّ النبي ﷺ لم يُعنِّف الرجلَ، بل رفق به، وعلَّمه ما لم يكن يعلم ، وقال له ﷺ :

" إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عز وجل وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ".[4]

وصدق الصادق ﷺ حين قال :"إنَّ اللهَ تعالى لم يبعثْني مُعنِّتًا ، ولا مُتَعنِّتًا ، و لكنْ بعثني مُعلِّمًا مُيَسِّرًا".[5]

وهكذا كانت رأفته صلى الله عليه وسلم بمن يعلِّمهم:

قال ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: « عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم التَّشَهُّدَ ، كَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ ، كَمَا يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ».[6]

وانظر إلى صبر الإمام الشافعي على طالبه:

---

[1] متفق عليه.
[2] انظر: التبيان في آداب حملة القرآن(ص/40)
[3] أخرجه مسلم(537)
[4] متفق عليه ، واللفظ لمسلم.
[5] أخرجه مسلم (1478)
[6] متفق عليه.

قال السبكي: قَالَ الْقفال فى فَتَاوِيهِ :كَانَ الرّبيع بطيء الْفَهم فكرَّر الشافعىُّ عَلَيْهِ مَسْأَلَةً وَاحِدَةً أَرْبَعِينَ مرّة فَلم يفهم ، فقَامَ الربيع من الْمجْلس حَيَاء ، فَدَعَاهُ الشافعى فى خلْوَة ، وَكرَّر عَلَيْهِ حَتَّى فهم ، وَقَالَ لَهُ يَوْمًا : "يَا ربيع ، لَو أمكنني أَنْ أطعمك الْعلم لأطعمتك ". [1]

وهذا من أبلغ صور الرحمة في التعليم، ومن أعظم آداب المعلِّم.

نقول: ولمَ لا يصبرُ المعلِّم على طلابه؟!

أليس هؤلاء الطلاب هم الرَّكب الذي تحتفي به الملائكة ، فتضع له أجنحتها ؟!

أليس هؤلاء الطلاب عُمْراً للشيخ بعد عمره؟!

أليس العِلمُ رَحِماً بين أهله ؟!

وإذا كان الله تعالى يقول في رحم الأنساب {وأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ} [الأنفال:٧٥]، فمن باب أولى أن تكون تلك الولاية بين أهل العلم ، من معلِّمين ، ومتعلِّمين.

بل إنّ رَحِم العلم يُقدّم على رحم النسب، فأبوك قام على بدنك، وأمّا معلّمك فقد قام على قلبك ، ومدار حياة الإنسان على قلبه، لا على بدنه، قال تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِى ٱلصُّدُورِ} [الحج:٤٦]

قال الشاعر ، فأحسَن نظماً ، وصدَق قيلاً :

أفضِّلُ أستاذي على فضل والدي.....وإنْ نالني مِن والدي الشرفُ والمجدُ

فهذا مُربّي الروح، والروحُ جوهرٌ .. وذاك مُرَبّي الجسم، والجسمُ كالصدف

فالعِلم رَحِمٌ بين أهله ، الذين هم معلّموه ، ومتعلِّموه.

واقرؤوا إن شئتم {ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} [الأحزاب:٦]، قال المفسّرون: هو أبٌ لهم في الدِّين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : " إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ ". [2]

قال الإمام النووي:أئمتنا وأسلافنا، كالوالدين لنا، وأجدى علينا فى مصالح آخرتنا التي هي دار قرارنا، وأنصح لنا فيما هو أعود علينا، فيقبح بنا أن نجهلهم ،وأن نهمل معرفتهم. [3]

وهذا تعبير عن مكانة العلماء وتقديرهم، حيث إنهم حقاً بمنزلة الآباء في الدين، لفضلهم وأياديهم البيضاء على طلابهم ، فعلينا أن نتأمّل صبر المعلّم، وتحمّله جهل طلابه، وسوء خُلُقهم، وضعف فَهمهم.

---

[1] انظر: طبقات الشافعية الكبرى(134/2)
[2] أخرجه أحمد (7368)وسنده صحيح.
[3] انظر: تهذيب الأسماء واللغات(11/1)

أليس هؤلاء الطلاب هم رزق الله تعالى إليه؟!

إنَّ من أعظم الأرزاق التي يُرزق بها المعلِّم أن يمنَّ الله تعالى عليه بطلابٍ: نجباء ،أوفياء ، نصَّاح ؛ فالطالب النجيب: يفهم ،وينشر ،والطالب الوفي: يحفظ حق شيخه،والطالب الناصح: يحرص على نصح شيخه بلطفٍ وأدب .

إنَّ من أعظم الأرزاق التي يُرزق بها المعلِّم أن يمنَّ الله تعالى عليه بطلابٍ يحملون عنه علمه وآثاره من بعده.

نقل ابنُ أبي خيثمة في "تاريخه" عن رجل من التابعين قال: "في صدري عشرة علوم، لم يسألني عنها أحد!"

تأمّل: لقد رُزق هذا الشيخ بالعلم، ولكنه لم يُرزق بمن يحمل عنه.

وجاء عن بعض السلف – ويُقال إنه سفيان الثوري – أنه دخل مكة، فما جاءه أحد، فتعلّق بأستار الكعبة، وقال:"يا رب، بأي ذنبٍ لم أُسأل ؟!

بين الشافعي والليث،تعرف فضل طلابك:

قال إمام الحرمين :ما من شافعي إلَّا وللشافعي في عنقه منَّة ، إلَّا البيهقي ؛ فإنه له على الشافعي منّة ؛ لتصانيفه في نصرته لمذهبه وأقاويله .[1]

قال الشافعي : الليث أفقه من مالك ، إلَّا أنَّ أصحابه لم يقوموا به.[2]

وقال يحيى بنُ بُكير: الليث أفقه من مالك، لكنَّ الحظوةَ كانت لمالك.[3]

فالإمام الليث بن سعد بشهادة الإمام الشافعي – وكفى به شاهداً- كان أفقه من مالك، ومع ذلك لم ينتشر مذهب الليث ، ذلك أنَّ الإمام مالك قد رُزِق بطلاب نشروا علمه في الآفاق، أما الليث فلم يُرزق بطلاب يحملون علمه إلى الناس.

فالأرض اليوم امتلأت بمذهب مالك، مما لم يتحقق مثله لمذهب الإمام الليث بن سعد ، السبب:

" لم يحملْه طلابه".

وتأمّل في شأن الإمام أحمد رضي الله عنه، فأمره عجيب ؛ فإنَّ الإمام أحمد لم نجد له قلمًا في الفقه إلَّا رسالة يسيرة ، حيث صنَّف رسالة يسيرة في فقه الصلاة، كتبها حين رأى رجلاً يصلي صلاة غير صحيحة ، لكنَّ جُلَّ علمه وأقواله وفتاويه جاءت من جمع طلابه، مثل:

مسائل ابن هانئ، ومسائل ابنه عبد الله ، ومسائل حرب الكرماني، ومسائل المروذي، وغيرهم ، حتى لا تكاد تجد مسألة فقهية إلَّا وللإمام أحمد فيها رواية أو روايتان أو ثلاث.

---

[1] انظر: تذكرة الحفاظ(220/2)، وطبقات الشافعية الكبرى(11/4)

[2] انظر: تهذيب الكمال(444/15)ووفيات الأعيان(127/4)

[3] انظر: الجرح والتعديل(180/7)

فمن الذي نقل علمه؟ إنهم طلابه ، فإنَّ الطلاب رزق، وهم حياةٌ للمعلِّم بعد موته ؛ فإنما يُنتفع بعلم الشيخ إذا حمله عنه طلابك.

وتأمل في يحيى بن منده ، وهو يقدِّر دور الطالب في حياة معلِّمه ، فإنه لمَّا قُرِيء عليه قول شعبة: " من كتبتُ عنه حديثاً فأنا له عبد" ، علَّق قائلاً : " ومن كتب عني حديثاً فأنا له عبد".[1]

فاللهم اجعل علمي حُجةً لي ، لا عليَّ، واجعل أفئدةً من الناس تهوي إليَّ.

ثم قال المصنِّف:" وهذه تجارةٌ بمثلها يتنافس الموفَّقون":

نعم، طلب العلم تجارة عظيمة، حين يحتسب المرءُ نفسَه في نشر العلم والسنة، والدعوة إلى الله تعالى ، وعلى قدر ما يرفع الطالب رأسه حرصاً وكدحاً في هذا الطريق بقدر ما يُرفع قدره وذكْره في الدارين ، وتأمَّل قوله تعالى:{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: 4] فكل من سار على درب النبي ﷺ في نشر العلم ، فله نصيبٌ من هذه الآية.

وكم من عالمٍ رفع الله تعالى ذِكره بين الناس، بينما لا يُذكر من كان أغنى أغنياء زمانه.

تأمّل في عصر الإمام أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ،وأحمد ، فلا يكاد أحدٌ يذكر أسماء الأغنياء في عصور هؤلاء الأئمة ، لكن بقيت أسماؤهم ،حين خلَّدتها علومهم .

وصدق القائل:

ما الفخـــر إلَّا لأهل العلم إنهم .. على الهدى لمن استهدى أدلَّاءُ

وقدْر كل امرئٍ ما كان يُحسِنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

ففزْ بعلمٍ تعشْ حياً به أبـداً .. الناسُ موتى وأهل العلمِ أحياءُ.

وصدق وصدق:

ذو العلم حيٌّ خالدٌ بعدَ موتِه ..... وأوصالُه تحتَ الترابِ رَميمُ

وذو الجهلِ ميّتٌ وهو يمشي على الثرى..... يُظَنُّ من الأحياء وهو عديمُ.

ونظير ذلك قوله تعالى : {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ} [المائدة: 67]فبقدر ما يبلّغ العبد دين الله تعالى بقدر ما يعصمه الله تعالى من كل سوءٍ وأذى .

ونظير ذلك قوله تعالى : {أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ} [الزمر: 36]فعلى قدر تحقيقك للعبودية، يكفيك الله تعالى كل ما أهمَّك.

[1] انظر: سير أعلام النبلاء(350/18)

ثم قال المصنِّف:

"على المعلِّم أن يسعى سعيًا شديدًا في إيجاد هذه التجارة (أي: تعليم العلم)، وفي تنميتها"، فهي تجارته الحقيقية، وهي من عمله وآثاره، كما قال الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ} [يس: 12].".

فيا أيُّها المعلِّم، ما تنشره من علم هو من آثارك الباقية بعد موتك ، وبقدر ما تُخلص فيه بقدر ما يزكو ويبقى في الناس منثورًا.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:"لا تعلَّموا العلم لتصرفوا به وجوهَ النَّاس إليكم، وابتغوا بقولكم ما عِند الله تعالى؛ فإنَّه يدوم ويبقى، وينفد ما سواه " .[1]

وهكذا عاقبة الإخلاص:

حينما همّ الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على "الموطأ" ، ليكون هو المرجع الشرعي للدولة العباسية في قضاءها وأحكامها ، رفض الإمام مالك ذلك؛ وقال:

(إنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع ، وتفرَّقوا فى البلدان)[2]

قال القاضي عياض:قال أبو جعفر المنصور ،للإمام مالك : "إني عزمتُ أن أكتب كتابك هذا نُسَخاً ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار يعملوا بما فيها ، ولا يتعدّوه إلى غيره ،قال الإمام مالك:

يا أمير المؤمنين لا تفعل ؛ فإنَّ الناس قد سبقت لهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث وروايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ، فدع الناس وما هم عليه ،وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم، فقال: لو طاوعتني على ذلك لأمرتُ به.[3]

فلمَّا كان ذلك من الإمام مالك تواضعًا وإخلاصًا لله تعالى ،وتجرّداً من حظوظ النفس، كان جزاءُ ذلك من الشّكور سبحانه أن يَنشر علم مالك وموطئه بين الناس ما بلغ ليل ، وتنفَّس صباح.

وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر أنَّ الإمام مالك سُئل :شغلتَ نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله ، فقال:

" لتعلمُنَّ إنه لا يرتفع من هذا إلَّا ما أُريد به وجه الله تعالى" ، قال الراوي: فكأنما ألقيتْ تلك الكتب في الآبار، وما سُمع لشيء منها بعد ذلك بذكر.[4]

فما كان لله تعالى دام واتّصَل ، وما كان للبشر انقطع واندثر (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ)

وليُعلمْ أنَّ الإمام مالك رحمه الله لم يرفض طلب أبي جعفر المنصور لعيبٍ في موطئه مثلاً ،

---

[1] انظر: جامع بيان العلم(176/1)
[2] انظر: كشف المغطَّى فى فضل الموطأ (ص/ 6)، وتذكرة الحفاظ (195/1)والانتقاء (ص/ 41)
[3] انظر : ترتيب المدارك(72/2)
[4] انظر: مقدمة التمهيد (86/1)

وإنما أراد ألَّا يحمل المسلمين على مذهبِ إمام واحد ، فإنَّ الإمام مالك قد أفرغ وسعه في الوصول إلى ما يراه حقاً يدين الله تعالى به ، ومع ذلك فهو لا يجزم أنه مصيبٌ في كل مسألة قال بها ، بل لسان حاله يقول " قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب".

ولذلك فقد أبى الإمام مالك على أبي جعفر المنصور أن يحمل المسلمين على مذهبه ، فما استأثر أحدٌ كائن مَن كان بالحق وحده ، قال تعالى (كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا)(الإسراء:20)

قال ابن مالك :وإذا كانت العلومُ مِنَحًا إلهية، ومواهبَ اختصاصيةً فغيرُ مستبعَدٍ أن يُدَّخَر لبعض المتأخِّرين ما عسُرَ على كثيرٍ من المتقدِّمين، أعاذنا الله تعالى من حسدٍ يسدُّ بابَ الإنصاف، ويصدُّ عن جميل الأوصاف". [1]

قال الشيخ بكر أبو زيد :

احذر غلطَ القائل "ما ترك الأول للآخر" ، وصوابه: كم ترك الأول للآخر! ، فعليك بالاستكثار من ميراث النبي صلى الله عليه وسلم، وابذل الوُسع في الطلب والتحصيلِ والتدقيق، ومهما بلغتَ في العلم، فتذكَّر: "كم ترك الأول للآخر".[2]

لذا فإنَّ إباء مالك في الواقع هو درس وعبرة لهؤلاء الذين يتعصّبون لآرائهم وترجيحاتهم ، على طريقة "ما أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ" ، ولسان حال أحدهم يقول :

" قولي صواب لا يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ لا يحتمل الصواب" ، ويقول بلسان حاله :

" كلٌ يؤخذ من قوله ويرد ،إلَّا قولي أنا!"

حتى تراه يفتقر أمانة النقل ؛ فيأتي مثلاً إلى مسألة ما هي محل خلافٍ بين أهل العلم ، ولا يُنبِّه إلى أنَّ الخلاف قديمٌ فيها ، فيختار ما يرجِّحه هو باختياره وفهمه، ولا يقول مثلاً : على قولين أصحهما كذا ، أو هناك قول ثانٍ وثالث.

وأما منهج السلف فمغاير لمثل هذه العصبيّات الجاهلية ، فمهما صالوا وجالوا في محاريب العلوم، ومهما بلغتْ في عقولهم الفهوم ، فما زال الواحد منهم يركن إلى هذا الأصل:

«قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب»، وهي قاعدة بديعة ترسم المنهج الصحيح في التعامل مع آراء الآخرين واجتهاداتهم، ومن سار عليها اتسع عقله في التعامل مع المواقف والآراء. [3]

---

[1] انظر: تسهيل الفوائد، وتكميل المقاصد(ص/3)

[2] انظر: حلية طالب العلم(ص: 174)

[3] **تنبيه مهم:**

لابد أن يعلم أن هذه العبارة ، وهي "قولي صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب" ، ليست على عمومها ، بل هذه إنما تقال في الفروع ، أما الأصول، من مسائل الاعتقاد ، كاعتقاد العبد في ربه تعالى ، وفي أسمائه وصفاته، وفي مسائل الإيمان ،=

قال ابن عثيمين -وهو يعدِّد آداب طالب العلم-:

«أن يكون صدره رحبًا في مواطن الخلاف الذي مصدره الاجتهاد؛ لأنَّ مسائل الخلاف بين العلماء، إما أن تكون مما لا مجال للاجتهاد فيه ، ويكون الأمر فيها واضحًا ، فهذه لا يُعذر أحدٌ بمخالفتها، وإما أن تكون مما للاجتهاد فيها مجال فهذه يُعذر فيها من خالفها، ولا يكون قولك حجة على من خالفك فيها؛ لأننا لو قبلنا ذلك لقلنا بالعكس قوله حجة عليك . [1]

مثالٌ آخر على الإخلاص في العلم:

كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني ،هل تعلم كم كتابًا صُنِّف في شرح صحيح البخاري؟

يقال إنهم تجاوزوا الثمانين شرحًا ، لكن حين يُقال شرح صحيح البخاري، فإنَّ الأذهان لا تنصرف إلَّا إلى فتح الباري للإمام ابن حجر ،وهذا من قرائن قبول الله تعالى لهذا العمل ، وتميّزه بالتجرّد والإخلاص.

لطيفة:

قال صدِّيق حسن خان: قِيل لشيخ شيوخنا الكاملين مولانا محمد بن عليّ بن محمد الشوكاني:

أمَا تشرح «الجامع» للبخاري، كما شرحه الآخرون من العلماء ؟ فقال: «لا هجرة بعد الفتح».[2]
وقول الشوكاني : «لا هجرة بعد الفتح»، يريد: «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني، رحم الله الجميع، وإجابته رحمه الله فيها اعتذار لطيف بليغ، اتفق مبناه مع حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وإنْ اختلف معناه ومغزاه.

وقيل إنَّ المراد من هذا القول:

أنه يريد أن يقول: إنه بشرح الحافظ ابن حجر رحمه الله «للجامع الصحيح» قد سقط الدَّين عن الأمَّة ،ففيه الغنية والكفاية، وأنه لا مزيد عليه .

وقيل: إنه يريد أن يقول: إنَّ شرح الحافظ ابن حجر رحمه الله كافٍ وافٍ ،ومِن ثَم فلسنا بحاجة إلى شرح جديد ،لأنَّه قد جمع الشروح المتقدِّمة في شرحه هذا ، ملخِّصًا ومستدرِكًا ومستنبِطًا ... إلخ، فهو بهذه الميَّزات لا يُهجَر إلى غيره من الشروح، بل يُكتفَى بما جمع فأوعى .

=وما شابه ذلك، فهذه لا يقال فيها مثل هذا التفصيل ،بل الذي يقال في أبواب الاعتقاد: أنَّ قولنا فيها صواب لا يحتمل الخطأ ، وقول مخالفينا خطأ ، لا يحتمل الصواب ، والله أعلم.
وهذا الذي نص عليه وقاله النسفي في آخر المصفى: إذا سئلنا عن مذهبنا ومذهب مخالفينا في الفروع، يجب علينا أن نجيب بأنَّ مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب مخالفينا خطأ يحتمل الصواب؛ لأنك لو قطعت القول لما صح قولنا إنَّ المجتهد يخطئ ويصيب.
وإذا سئلنا عن معتقدنا ومعتقد خصومنا في العقائد يجب علينا أن نقول: الحق ما نحن عليه ، والباطل ما عليه خصومنا.
انظر: " الْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِيْ حَنِيْفَةَ النُّعْمَان" (ص/133)، للإمام زين الدين بن إبراهيم بن محمد، الشهير بابن نجيم (ت 970 هـ)

[1] انظر: كتاب العلم(ص/23)

[2] قاله في «الحِطَّة» (ص/131)، وعنه الكتاني في «فهرس الفهارس» (1/322-323)

ثم قال المصنِّف وهو يتوجَّه بالكلام إلى المُعلِّم:

" يُراقب مُتعلِّمه بكلِّ طريق، ولا يَمَلُّ اشتغاله بما يَعثُر عليه فهمه من أنواع العلوم ومفرَداتها بالمعنى ".

ومعنى الكلام: أنَّ المعلِّم لا يَثبُت حال شرحِه على طريقةٍ واحدة، بل من فقه إيصال العلم أن يُنوِّع المعلِّمُ في وسائله حينما يَشرح ما يُريده للطالب ؛ فإنَّ للتَّنويع فوائد مهمة ؛ إذ إنَّ التَّنويع يَدفَع المَلل والسأم عن الطلاب .

ولنا في رسول الله ﷺ أُسوةٌ حسنة ؛فهو خير من علَّم فأفهمَ ، يقول مُعَاوِيَةُ بْنُ الْحَكَمِ السُّلَمِيّ رضي الله عنه :" بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ" .[1]

فإنَّ الذي يستقرأ هدي النبيِّ ﷺ في تعليمِه لأصحابه رضي الله عنهم لا يَرى مسلَكًا واحدًا ولا طريقةً واحدة، بل كان ﷺ يُنوِّع في طريقة إيصال العلم .

فمن طرائق التعليم: التعليم بطرح الأسئلة:

فقد كان صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يَطرح على أصحابه رضي الله عنهم أسئلةً ؛ يُنشِّط بها أذهانهم ، ويثير هَمَائمهم ،ويختبر ما عندهم ، ولا شك أنَّ ما يتعلَّمه المرء عبر السؤال والجواب أبلغ في الثبوت والرسوخ في الذهن مما يسمعه مباشرة من شيخه .

فإنَّ طَرح المعلومة إذا أتت مباشرةً قد تُنسى، بخلاف ما إذا طُرحت عبر سؤال؛ فالمعلِّمُ

عليه أن يُهيِّج أذهان وأفكار السامعين، ويُوقِظ عُقولهم ونُفوسهم من الكسل والانشغال، فيُعزِّز بذلك انتباههم للسَّماع والفهم ، ومثل هذا مما كثر وروده في السُنّة المباركة ،فمن ذلك مثلًا:

1-عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: صلى الله عليه وسلم :

« يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ،

قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: {اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، أَبَا الْمُنْذِرِ ». [2]

2-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ:

" أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ

---

[1] أخرجه مسلم(537)

[2] رواه مسلم في فضائل القرآن (810)

وَقوله ﷺ: " وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ "،: أي ليكن العلم هنيئا لك ، وفي هذا الحديث منقبة عظيمة لأبيّ رضي الله عنه، ودليل على كثرة علمه، وفيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه وتكنيتهم وجواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان فيه مصلحة، ولم يخف عليه إعجاب ونحوه؛ لكمال نفسه ورسوخه في التقوى.انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (6/ 341).

هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ .». [1]

ومن سنن التعليم أيضًا: التعليم بالرسم:

عن عبد اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه ، قال: خَطَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ:

«هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ -أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ- وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا». [2]

وعن عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ:" خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: " هَذَا سَبِيلُ اللهِ تعالى مُسْتَقِيمًا "، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: " هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ "، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} . [3]

وكان بإمكانه ﷺ أن يقول ذلك باللفظ، ولكنَّه آثر الرَّسم لشحذ الهِمم ، ولإفهام الأذهان.

والشاهد أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد أبان الفكرتين في هذين الحديثين بالرسم في الأرض، فرسم خطوطاً ، فيفيد هذا جواز الرسم للإيضاح ، ولكن يشترط في ذلك ألَّا يشمل هذا على رسمٍ لذوات الأرواح، فإنَّ رسم ذوات الأرواح محرَّم .

فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ " . [4]

كذلك من طرائق التعليم: التعليم بالقِصَّة :

وهو من أكثر ما نجده في هدي النبي ﷺ ، كقصص بني إسرائيل ، وغيرهم ، ومن ذلك ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، قَالَ: ائْتِنِي بِشُهَدَاءَ أُشْهِدُهُمْ ،

قَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ، قَالَ: ائْتِنِي بِكَفِيلٍ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ،فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا، يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مَعَهَا إِلَى صَاحِبِهَا، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا الْبَحْرَ، ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي اسْتَسْلَفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَإِنِّي قَدْ جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ بِالَّذِي أَعْطَانِي ، فَلَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا، وَإِنِّي اسْتَوْدَعْتُكَهَا.

---

[1] أخرجه مسلم(2581)

[2] أخرجه البخاري (6417)

[3] أخرجه أحمد(4437) إسناده حسن من أجل عاصم، وهو ابن أبي النجود.

[4] أخرجه البخاري(1999) ومسلم (2108)

قال الحافظ في "الفتح" 10/ 384: " هو أمر تعجيز، ويُستفاد منه صفة تعذيب المصوّر، وهو أن يُكلَّف نفخَ الروح في الصورة التي صوَّرها، وهو لا يقْدِرُ على ذلك، فيستمر تعذيبُه" .

فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَطْلُبُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ، وَالصَّحِيفَةَ.

ثُمَّ قَدِمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ، فَأَتَاهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: وَاللهِ ، مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا الَّذِي جِئْتُ فِيهِ؟ قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ بِهِ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِأَلْفِكَ رَاشِدًا".[1]

ومن طرائق التعليم أيضًا: التعليم بالموقِف:

عنْ جَرِيرٍ رضي الله عنه قَالَ:" كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي الْبَدْرَ - فَقَالَ: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا) ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}." [2]

وعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه قَالَ:« كُنْتُ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي: يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ .»[3] .

فصارت تلك الكلمات نبراساً لعمرَ رضي الله عنه ، وللأمة من بعده ، ولذلك قال عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه :" فلم تزل هذه طعمتي بعد"، فكم من المواقف التي نراها مع أولادنا أو غيرهم في المناسبات لو استثمرت لحصل خير عظيم.

وربَّ كلمةٍ صنعتْ نَجماً:

قال الشافعي: خرجتُ أطلب النحوَ والأدبَ، فلقيني مُسلمُ بْنُ خالد، فقال: يا فتى! مِنْ أينَ أَنْتَ؟ قلت: مِنْ أَهْلِ مَكَّة ، قال: وأيْنَ مَنْزِلك بها؟ قلت: بشِعْبِ الخَيْف، قال: من أي قبيلة أنت؟ قلت: من ولد عبد مناف ،قال: بخ بخ!! لَقَدْ شَرَّفَكَ الله تعالى في الدُّنْيا والآخِرة، أَلَا جَعَلتَ فهمَك هذا في الفِقْهِ، فكانَ أحسنَ بك؟، قال: "فوقع ذلك في قلبي".[4]

وهذا أحد منارات هذه الأمة ، وعلَمٌ من أعلامها ، وصاحب سِيَر أعلامها ، الإمام الذهبي رحمه الله ، لمَّا كان شاباً حدَثاً يقول:

كتبتُ شيئاً من الكلام، فرآه شيخي، وهو الإمام علَم الدين البرزالي فقال لي : "خطك يُشبه خط المحدِّثين"، يقول الذهبي رحمه الله:

---

[1] أخرجه البخاري في "صحيحه" تعليقاً (6261)،وفي "الأدب المفرد"(1128)وأحمد(8587)، وصححه الشيخ أحمد شاكر.
[2] متفق عليه.
[3] متفق عليه.
[4] انظر: مناقب الشافعي(97/1)

فوقعتْ تلك الكلمة في قلبي ، وأثّرت علي، فحُبِّب إليّ علم الحديث"[1] ، فكان رحمه الله تعالى من أئمة الحديث ، وأحد أعلامهم .

فهذه إشادة فقط رقيقة، ما كلَّفت صاحبها درهماً ولا ديناراً ، لكنها بفضل الله تعالى جعلت مِن الذهبيّ أحد أئمة هذه الأمّة ، فكتب لنا "سير أعلام النبلاء"، و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال"، و"المعين في طبقات المحدثين"، و"ديوان الضعفاء والمتروكين" .

فلماذا لا نشيد بالطلاب النجباء، ونثني عليهم ونحثهم على المواصلة ، فهذا هو فن استثمار المواقف ، وصناعة الرجال..

يقول رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يوماً عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

"نِعمَ الرَّجُلُ عبدُ اللَّهِ لَو كان يَقومُ مِنَ اللَّيلِ"، قال سالِمٌ: فكانَ عبد الله لا يَنامُ مِنَ اللَّيلِ إلَّا قَليلًا.[2]

فكم من كلمة من المعلِّم تبني ، وكم كلمة منه تهدم.

أيضًا من طُرُق التعليم "ضرب الأمثلة ":

وهذا النوع مما كثر وروده في الكتاب والسُنّة ، قال تعالى (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(الزمر:27)

وكذلك النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان كَثيرًا ما كان يَستخدِمُ ضَرْبَ الأمْثلة البَليغة الوجيزةِ الَّتي تَصِلُ بها المعلومةُ ، وتَرسَخُ في الأذهانِ ، ومن ذلك ما ورد في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ،أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

" مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ تعالى ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ ".[3]

ففي هذا الحَديثِ يضربُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المثل باختلاف القلوب حال تلقّيها للعِلمِ والهداية ، كاختلاف الأرض حال تلقّيها للغيثِ الَّذي يَنزِلُ عليها :

1-فمنها أرضٌ خِصبةٌ تَقبَلُ الماءَ ، فتُنبِت الكلأ ، ومَثَلُ هذه مَثَلُ العالِمِ المُتفقِّهِ في دِينِ اللهِ عزوجل، العاملِ بعِلمِه، المُعلِّمِ لغيرِه ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم هنا : "أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ".

---

[1] انظر: ثلاث تراجم نفيسة (ص/40)، وهي رسالة لطيفة للإمام الذهبي ذكر فيه ثلاث تراجم للأئمة الأعلام: شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ علم الدين البرزالي، والحافظ جمال الدين المزي.

[2] متفق عليه.

[3] متفق عليه.

2-ومنها أرضٌ صلبة ممسِكة للماءِ ، لا تُنبِتُ زَرعًا، ولكن يُنتفع بمائها ، وذلك مَثَلُ ناسٍ لهم قُلوبٌ حافظةٌ، لكنْ لَيست لهم أذهانٌ ثاقبةٌ ، فهمْ يَحفَظون العلم حتى يَجِيءَ لأخذه منهم من يَنتفَع به، وقيل : مَثَلُها مَثَلُ العالِمِ الَّذي يعلِّمُ غيرَه، ولا يعمَلُ بعلمِه؛ فهو كالشَّمعةِ تُضيءُ لغيرِها، وتُحرِقُ نفْسَها ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم هنا: "منها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ تعالى بها النَّاسَ".

3-ومنها :أرضٌ قِيعانٌ سباخٌ لا تُنبِت زَرعًا، ولا تُمسِكُ ماءً، فلم تَنتفِعْ بذلك الغيث في نفْسِها، ولم تَنفَعْ غيرَها به ،وهذا مثال للعالِمِ الَّذي لم يَعمَلْ بعِلمِه، ولم يُعلِّمْه غيرَه ، وهو المراد بقوله ﷺ هنا : " قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً ".

أيضًا مما ورد في ضرب الأمثلة في السُّنة :

عن أَبَي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ ، وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا ، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا". [1]

وفي هذا الحديثِ يَضرِبُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَثَلًا لشِدَّةِ حِرصِه على هِدايةِ النَّاسِ، وشَفَقتِه ورَحمتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهمْ، كما قال تعالى (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ 128)(التوبة:128)

فأراد ﷺ من خلال ضرب هذا المثل أن يُبيِّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مَثَلَه ومَثَلَ النَّاسِ كمَثَلِ رجُلٍ أوقَدَ نارًا، فلَمَّا أضاءَتْ هذه النَّارُ ما حَولَها، جعَل الفراش تَطلُبُ هذا الضَّوءَ ولا تَعلَمُ أنَّه نارٌ مُهلِكةٌ ، فجعَلْنَ يَقَعْنَ فيها، وهذا الرَّجُلُ الذي أوقد النَّارَ بقَصدِ الإضاءةِ يحاوِلُ أن يمنَعَهنَّ من الدُّخولِ في النَّارِ، ولكِنَّه لا يستطيعُ، فيَغلِبْنَه، فيَدْخُلْنَ في النَّارِ.

ثم بَيَّن النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ شَأنَه في دَعوةِ النَّاسِ إلى الإسلامِ، كحالِ المُنقِذِ لهمْ مِن النَّارِ مع إقبالِهم على ما تُزَيِّنُ لهمْ أنفُسُهم مِن التَّمادِي في الباطلِ والوقوعِ في المعاصي المؤدِّيَةِ إلى النَّارِ، وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَأخُذُ بِحُجَزِ النَّاسِ لِيُبعِدَهم عن المعاصي التي هي سَبَبٌ للوُلوجِ في النَّارِ.

ومن سبل التعليم : التعليم بالإشارة ، ونذكر من أمثلة ذلك :

1-عَنْ سَهْلِ بن سعد رضي الله عنه قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:" أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا "، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ". [2]

[1] متفق عليه، وقوله ﷺ : "بحجزكم ": جمع حُجْزَة، وهي في الأصل موضع شَدِّ الإزار، وهو وَسَط الإنسان، ثم قيل للإزار: حُجْزَة، للمجاورة. (انظر: النهاية في غريب الحديث، مادة: حجز).
[2] أخرجه البخاري(4998)

2-وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّه قَرَأُ قوله تعالى{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {سَمِيعًا بَصِيرًا} ، ثم قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ.[1] قَالَ أَبُو دَاوُدَ : وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ.

وهذه الإشارة من النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما أراد منها إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى ، لا على معنى وصفه بأنه " عليم " ، كما ذهب إليه معطّلة الصفات ، لذا قال أَبُو دَاوُد بعد روايته لهذا الحديث : وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ .

تنبيه:

ولْيعلم أنَّ هذا الحديث أحد الأحاديث المثبتة للصفات الذاتية لله عزوجل ،وهما صفتا السمع والبصر ، مع وجود الأدلة الأخرى المثبتة للصفات الخبرية لله عزوجل ، كاليد والعين ،على ما يليق به سبحانه ، لا سَميّ له ، فليس المراد في هذا الحديث الإشارة إلى العضو والجارحة ؛ فإنَّ الله عز وجل لا يُشبّه بأحدٍ من خلقه ، كما قال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)(الشورى:11).[2]

ثم قال المصنِّف:" فلولا العلم، كان الناس كالبهائم في ظلمة،يتخبَّطون، وفي غيهم يَعمَهون "

وهذه العبارة في كلام المصنِّف : " لولا العلم، كان الناس كالبهائم " ، مما رويت عن الحسن البصري ، حيث قال رحمه الله: لولا الصالحون لفسدت الأرض، ولولا العلماء لكان الناس كالبهائم، ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضًا.[3]

ومعنى الكلام وتوجيهه: أنَّ دور المعلِّم يقوم على التهذيب، والتأديب، والإصلاح ،فالمعلِّم يُربّي أنفس المتعلِّمين ويُنقِّيها من وَحْلِ الشهوات والشُّبُهات.

فانظر – يرحمك الله – إلى أهل الكتاب، لمّا جعلوا علوم الشرائع المنزَّلة ظِهريًّا وتخلّفوا عن ركابها ، صاروا ما يتركون شيئًا من الفتن والضلال والشهوات إلّا ركبوها.

وانظر إلى الغرب الآن، لما كفَروا بعلوم الشرائع المنزَّلة صاروا كالبهائم، بل البهائم خيرٌ منهم ، فصاروا يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ويسارعون في الشهوات ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله تعالى فنسيهم.

---

[1] أخرجه أبو داود(4728) ، وصحّحه ابن خزيمة وأخرجه في كتاب التوحيد (49) وعنه ابن حبان في صحيحه (265))، وصححه على شرط مسلم: الحاكم في "المستدرك"(24/1)وكذا الحافظ أبو محمد الخلّال في"«إبطال التأويلات» (ص/ 383) "، والحافظ ابن حجر في «الفتح» (13/ 373)
وانظر: "السلسلة الصحيحة" تحت حديث (3081).

[2] قال عبدُ الله بنَ وَهْبٍ: سمِعتُ مالكَ بنَ أنسٍ يقول: مَن وصَفَ شيئًا من ذاتِ الله، مثل قوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: 64]، وأشارَ بيَدِه إلى عُنُقِه، ومثلَ قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]، فأشارَ إلى عَيْنَيْه أو أُذُنَيه أو شيءٍ من بَدَنِه، قُطِعَ ذلك منه؛ لأنَّه شَبَّهَ اللهَ تعالى بنفسِه.
انظر : التمهيد لابن عبد البر(157/5)، ولمزيد من الفوائد في هذا الباب: يراجع :" فيض الجواد شرح لمعة الاعتقاد"، للمصنف.

[3] وقيل إنَّ كلام الحسن البصري كان يُشبِه كلام الأنبياء ، وأنَّ من أسباب التوفيق في عِباراتِه وكلماته، أنه رَضَع في بيت أم سَلَمة، رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت أُمُّه خادمةً عندها، فرَضَع في بيت النبوَّة.

قضية التزكية:

لذا فمن أهم مهام المعلِّم التي أناطها الشارع به أن يقوم على تَزكية الأنفس، اقتداءً بالنبي ﷺ، الذي قال تعالى في حقه {لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ} (آل عمران: ١٦٤)

قال عزوجل(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا(8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (9)وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا) (الشمس7-10)

وفي حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:

" اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا " [1]

فإنَّ سلوك الطالب للأدبِ بلا علمٍ لا يخلو من ركوب البِدَع ؛ فقد ترى صاحبَه مُؤدَّبًا فيما يبدو للناس، ولكنه مُبتدع ، تراه بلسان حاله وفعله يستدرك على شرع الله تعالى ،وسنن النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

كما أنَّ سلوك العِلم بلا أدب ، يحمل المرءَ على إساءة الأدب مع نصوص الوحيين ، والتجرؤ عليها، فلا يَقْدُرُها حق قدْرها ، فيكون العِلم حُجَّةً عليه ، لا له.

فلابد من محاسبة النفس ، والسعي إلى تزكيتها ، ولا شك أنَّ هذا ليس بالأمر الهين على نفسٍ جُبلت على حبِّ الشهوات ، لذا فإنَّ هذا من أعظم سبل الجهاد ، كما قال ابن الجوزي :

" تأملتُ جهاد النفس، فرأيته أعظم الجهاد " [2]

فمن أذلَّ نفسَه لله تعالى وكبَح جماحها وملاذها فقد فاز ، وهو في الحقيقة لا يُذلُّها، بل يُعزُّها بطاعة الله عزوجل ،قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من أذلَّ نفسَه لله تعالى فقد أعزَّها".[3]

لذا فقد وجب على كل مريد للنجاة من الوصول إلى التخلّص من أمراض القلوب ؛ فأمراض القلب تعصِره عصراً، وتُغيب العقل عن إدراكه ، وهو ما يُسمّى بـ"السُّكر" في العشق والشهوة،

وهذا قد يكون أشد نكاية في القلب من سُكْر الخَمر ؛ فإنَّ الذي سَكِر بالخمر قد يَفيق، أما الذي سَكر بالشهوة فأنىّ له أنْ يفيق ، إلَّا أن يشاء الله تعالى شيئًا، قال تعالى(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)(الحجر:72)

قال ابن القيم:ومن أسباب السُّكْر حبُّ الصُّوَر، فإنَّه إذا استحكم الحبُّ، وقوِيَ؛ أسكر المُحِبَّ، وأشعارُهم بذلك مشهورةٌ كثيرةٌ، ولاسيَّما إذا اتَّصلَ الجماعُ بذلك الحُبِّ، فإنَّ صاحبه ينقصُ

---

[1] أخرجه مسلم(2722)
[2] انظر: صيد الخاطر(ص/80)
[3] انظر: مجموع الفتاوى(327/28)

تمييزه، أو يعدمُ في تلك الحالة، بحيث لا يميّز، فإنْ انضاف ذلك السُكر إلى سُكْر الشراب، بحيث يجتمعُ عليه سُكْرُ الهوى، وسُكْرُ الخمر، وسُكْرُ لذَّة الجِماع؛ فذلك غاية السُّكْر.[1]

فإذا ما سأل سائل عن أنفع السبل نحو تزكية النفس ، فنقول إنَّ لذلك عدة سبل ، نذكر منها:

أولًا: القرآن الكريم:

فالقرآن هو خير ما يُزكِّي النفس؛ فهو مدرسة : تأديب ، وتهذيب ، وإصلاح ،أخرج خير أمة سادت الناس ، قال تعالى (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)(الإسراء:9)

ولو تأمَّلت، فلن تجد آيةً وصف الله تعالى فيها القرآن بأنه "دواء"، بل كل الآيات وصفتْ كتاب الله تعالى بأنه شفاء ، كقول الله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ} [يونس: 57]، وكقوله تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)(الإسراء:82)،فإن قيل: وهل من فرقٍ بين "الدواء" و"الشفاء" ؟

فالجواب:

نعم ،فإنَّ الدواء قد ينفع وقد لا ينفع، أما الشفاء فهو حاصل وواقعٌ لا محالة بإذن الله تعالى، وهذا هو حال القرآن ، لمن قام به علماً وعملاً ، ولمن كان له قلب ذا يقين في نفعه ،وألقى السمع ، وهو شهيد.

فالقرآن شفاءٌ لما في الصدور من أمراض الشبهات ، قال تعالى (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ)(البقرة:10)، وأمراض الشهوات ،كما في قول الله تعالى (فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)(الأحزاب:32)

فكفى بكلام الله تعالى هادياً ومربيًّاً ، وكذلك لا تنس نصيب القلب من أحاديث مشكاة النبوة ، مثل "رياض الصالحين" للنووي ، أضف إلى ذلك كتب التربية والتزكية ، ومنها على سبيل المثال:

منهاج القاصدين لابن الجوزي ،ومختصره لابن قدامة المقدسي، وهذا الأول هو اختصار لكتاب " إحياء علوم الدين "للغزالي ، كذلك هذَّب العلَّامة محمد جمال الدِين القاسمي(ت:1332هـ) كتاب " الإحياء "في كتاب سمَّاه : " موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين" .

ولشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم القِدْحُ المُعلَّى في هذا الباب ،ونخص من ذلك :

المجلدين العاشر والحادي عشر من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومدارج السالكين ،و"الداء والدواء" ،وكلاهما لابن القيم ، وكتاب "التخويف من النار" لابن رجب ،و"التذكرة" للقرطبي، فإنَّ هذه –بإذن الله تعالى-من أنفع ما يكون لتزكية النفس الباطن وحصول الاستقامة.

[1] انظر: روضة المحبين(ص/230)

فاجعل لقلبك ورداً من قراءة أمثال هذه الكتب فهي نافعة في تطهير القلب، وإيقاظه من الغفلة ، فتراها تغسل القلب غسلاً من الران والشان، فالقلب يَحتاج إلى غَسلةٍ بعد عسلةٍ حين تغشاه الذنوب ، وتعلوه الغفلة.

والنَّفْسُ إذا هَذبتْهَا رَقَّتْ ... بِكَ عن مَزَابِلِ الشَّهَوَاتِ

فَقُمْ بِهَا ، وَقَوِّمْهَا تَفُزْ ... نَجَاةً مِنْ حَبَائِلِ الْخَلَوَاتِ.

ثانيًا: مجالس العلم:

وهذا من أنفع السبل في تزكية النفس ؛ فإنَّ مجالس العلم بها يرقى الطالبُ في درجات سُلَّم إلى معارج القبول ، فلا شك أنَّ العلم النافع يربِّي الجنان والأركان واللسان على الكلِم الطيب والعمل الصالح ، وأثر العلم الشرعي في تزكية النفوس معلومٌ مشهود ، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(فاطر:28)

قال الحسن : كان الرجل يطلب العلم ؛ فلا يلبث أن يُرَى ذلك في تخشُّعه وهديه ولسانه وبصره ويده .[1]

ثالثًا: من سبل تزكية النفس " الترغيب والترهيب":

وهذا كثيرٌ في القرآن، حيث يُذكر ترغيب النفس وترهيبها ؛ فإنَّ بعض النفوس قد لا ينفع معها الترغيب، فتحتاج إلى التخويف، وهذه تراه كثيراً في مدرسة القرآن ،قال عزوجل (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ(37) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (38) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ(39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ(40) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ)(النازعات37-40) ، وقال تعالى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: 46].

وعندما ذكر الله تعالى ما زُيّن للناس من حب الشهوات قال بعدها {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ} [آل عمران: 15]،وقال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: 59]

[1] انظر:الزهد لعبد الله بن المبارك (ص ٢٦ رقم ٧٩) ؛وجامع بيان العلم (٦٠/١)

ثم أورد المصنِّفُ كلامًا مهمًّا قال: " البلد الذي ليس فيه من يُبيّن للناس أمر دينهم ويرشدهم لما ينتابهم، فهم مُضطرّون إليه، لا خير في الإقامة فيها "..

وهذا من المصنِّف رحمه الله إشارة مهمة إلى ضرورة الرحلة في طلب العلم ، وهذا ضربٌ من الهجرة في سبيل الله تعالى ، ولا شك أنَّ الهجرة إلى الله تعالى وإلى هدي رسوله صلى الله عليه وسلم لهي من أعظم الأعمال الصالحة التي يُتقرّب بها إلى الله تعالى ،قال تعالى(وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)(النساء:100)

لذا ترى المهاجرين من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم دوماً مقدَّمين في الذكر على الأنصار رضي الله عنهم في كل آيات الكتاب، وعلة ذلك أنَّ الأنصار رضي الله عنهم إنْ كانوا قاموا بنصرة الدِّين ، فإنَّ المهاجرين رضي الله عنهم قد جمعوا بين الحسنيين، بين الهجرة إلى الله تعالى ، وإلى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وبين نصرة دين الله تبارك وتعالى.

ومثل هذا الكلام الذي ذكره المصنِّف تراه منقولاً عن جماعة من السلف؛ أنه يتعيَّن على طالب العلم أن يُهاجر إلى بلدٍ يتعلّم فيها السُنّة، وأن يهجر الأرض التي تغلب فيها البدعة.

والأصل في وجوب هجر أرض المعاصي والبدع :

حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، لمَّا ذَكَر الرجلَ الذي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ، فأراد التوبة ، دَلُّوه عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَسأله : هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ ؟

فَقَالَ: نَعَمْ ؛ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَك وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا ؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ تعالى فَاعْبُدِ اللهَ تعالى مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ . [1]

قال ابن حجر:فيه فضل التحوّل من الأرض التي يصيب الإنسانُ فيها المعصية ؛ لمَا يغلب بحكم العادة على مثل ذلك ، إما لتذكّره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها ، وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضُّه عليه، والتائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحوّل منها كلها.[2]

نعود فنقول:

وصية المصنِّف لطالب العلم أن ينجو بدينه من أرضٍ بوار ، دَرَستْ فيها السنن والآثار، وغاب عنها الربّنيون والأحبار ، فعليه أن يهاجر بحثاً عن شيخ يأخذ بيده إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ومثل هذا المعنى يُستقى من قول الله تعالى: {قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ} [العنكبوت: 56]،أي: إن ضاقت عليكم الأرض بدينكم، ففرّوا إلى الله تعالى، واطلبوا أرضًا تعبدوه فيها على بصيرة.

---

[1] متفق عليه.

[2] انظر: فتح الباري(517/6)

وقد نُقل عن الإمام الشافعي أنه قال : " لا تسكنْ بلدة لا يكون فيها عالمٌ ينبئُك عن دينك ".[1]

تنبيه مهم:

مسألة الهجرة من الأرض التي لا عالِم فيها كان من الوجوب بمكان من أزمنة سالفة ، أما في هذا الزمان فقد صار الوصول إلى أهل العلم ميسَّرًا، لا سيّما مع توافر وسائل الاتصال بكافة صورها ، فيمكن للطالب الذي تعسَّر عليه الرحلة في طلب العلم أن يتعلَّم أمور دينه عن بُعد، بسماع الدروس، ومراسلة أهل العلم في كل مكان.

لذا فإنْ لك عُذرٌ في ترك الرحلة لظروف عارضة ، لكن لا عذر لك في ترك الطلب ، فإمكانك أن تتواصل مع أهل العلم، وتستمع إلى دروسهم، ولو تيسَّر لك الذهاب إليهم ولو مرةً كل فترة ليختبرك فيما سمعتَ ؛ فإنَّ الاختبار يُصحِّح المفاهيم ويضبط الأفكار.

نصيحةٌ مهمة:

فيما يتعلَّق بسماع الدروس عبر وسائل الاتصال فإنَّ بركة العلم والفهم إنَّما تحصل للطالب بقدر إقبال قلبه على كلام الشيخ بالاستماع والإنصات ، أما أن يكون الطالبُ عند سماعه جالسًا بكل أريحية ، لا يتدبّر، ولا يكتب، ولا يقبل بكلِّيته على معلِّمه فإنَّ بلا شك مُذهِبٌ لبركة العلم ونفعه،

قال تعالى(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)(ق:37)

ثم قال المصنِّف رحمه الله:

وَإِذَا كَانَ مِنْ أَحْسَنَ إِلَى الإِنْسَانِ بِهَدِيَّةٍ مَالِيَةٍ يَنْتَفِعُ بِهَا، ثُمَّ تَذْهَبُ وَتَزُولُ، لَهُ حَقٌّ كَبِيرٌ عَلَى المُحْسِنِ إِلَيْهِ ، فَمَا الظَّنُّ بِهَدَايَا العِلْمِ النَّافِعِ الكَثِيرَةِ المُتَنَوِّعَةِ البَاقِي نَفْعُهَا مَا دَامَ الْعَبْدُ حَيًّا ".

لا شك أنَّ للمعلِّم على طلابه من الأيادي البيضاء ما يُعدُّ ولا يُحصى ، فإذا كان الله تعالى قال في حق نبيّه ﷺ(الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ)(إبراهيم:1)

فإنَّ للمعلِّم نصيباً من هذه الآية ، فكم كان المعلِّم – بفضل الله- عوناً لطلابه على إخراجهم من غيابات البدع والجهل إلى نور العلم الإيمان، وكم فَتَح الله تعالى به أعْيُنًا عُمْيًا، وآذَانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا.

لذا فقد صار حقُّه مقدَّماً محفوظاً ومعروفاً ،عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ :

"مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونه بِهِ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ".[2] ،وإذا كان هذا في حق آحاد الناس، فكيف بحق المعلِّم؟!

[1] انظر: المناقب (2/ 115).

[2] أخرجه أحمد (5365)وأبو داود (5109) واللفظ له، وصححه الألباني.

لذلك فإنَّ الدعاء والتوقير لمن استفدتَ منه علماً لهو من أقل ما يُجزى به، وقد جاء عن رِزْقِ الله التميمي الحنبلي أنه كان يقول: «يَقْبحُ بكم أن تستفيدوا منَّا ، ولا تترحّموا علينا».[1]

وذكر الخطيب البغدادي أنَّ من أدب الطالب مع شيخه أن "ينبّله في الخطاب، ويبجّله في الألفاظ، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أفناء العوام، فقد قال الله تعالى :{لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} ، وهذا أصل في أن يُميَّز ذو المنزلة بمنزلته.[2]

وإذا كان العالِم هو الوريث الشرعي للنبي ﷺ ،وقد قال تعالى في حق نبيّه ﷺ (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ)(الفتح:9) ، فلا شك أنَّ شيخك ومعلِّمك له نصيب من هذه الآية.
قال الزُّرْنُوجِي:اعلم أنَّ طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلَّا بتعظيم العلم وأهله، وتعظيم الأستاذ وتوقيره، قيل: ما وصل من وصل إلَّا بالحرمة، وما سقط من سقط إلَّا بترك الحرمة. [3]

وهكذا يوقَّر حملة ميراث النبوة:عَنْ عَمَّارِ بْنِ أَبِي عَمَّارٍ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رضي الله عنه رَكِبَ يَوْمًا دابته ، فَأَخَذَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما بِرِكَابِهِ، فَقَالَ له زيدٌ رضي الله عنه: تَنَحَّ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا وَكُبَرَائِنَا» ، فَقَالَ زَيْدٌ رضي الله عنه: أَرِنِي يَدَكَ ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ، فَقَبَّلَهَا ، فَقَالَ : «هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». [4]

قال ابن المديني:" أمرني سيّدي أحمد بن حنبل ألَّا أحَدِّث إلَّا من كتاب". [5]

وانظر كيف توقير الإمام مسلم بنِ الحجَّاج لمعلِّمه وشيخه ، الإمام سيد المحدِّثين محمد بن إسماعيل البخاري ، فقد أقبل عليه يوماً فقبَّل بين عينيه، هو يقول:
"دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدِّثين، وطبيب الحديث في علله، لا يبغضك إلَّا حاسد ، وأشهد أنْ ليس في الدنيا مثلك".[6]
كذلك، كان من سُنن السلف في توقير أهل العلم:

ألَّا يمشي أمامه، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ بالكلام عنده إلَّا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده، ولا يسأل شيئًا عند ملالته، ويراعي الوقت، ولا يدقُّ الباب، بل يصبر حتى يخرج الأستاذ .

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما:إنْ كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتيه وهو قائل، فأتوسَّدُ ردائي على بابه ،فتسفي الريحُ على وجهي التراب، فيخرج فيراني ، فيقول: "يا ابنَ عمِ رسولِ الله ، ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إلي فآتيك؟! فأقول: أنا أحقُ أن آتيك، فأسأله عن الحديث .[7]

---

[1] انظر: رسالة المسترشدين(ص/4)
[2] انظر: الجامع للخطيب(183/1)
[3] انظر: تعليم المتعلم في طريق التعلم(ص/25)وقوله: ما وصل من وصل إلَّا بالحرمة: احترام الشيخ ،والتأدَّب معه.
[4] انظر: أخرجه الذهبي في المهذب في اختصار السنن (9797) والخطيب في "الجامع" (188/1)،وصححه ابن حجر في "الإصابة"(42/4)
[5] انظر: نزهة الفضلاء(200/11)
[6] انظر: معرفة علوم الحديث (ص/113)وتاريخ بغداد(102/13)
[7] رواه الدارمي (٥٧٠)، والطبراني (١٠٦١٤)، والحاكم (١/ ١٨٨)،وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد)(280/9): "رواه الطبراني ،ورجاله رجال الصحيح".

قال أَبو عُبَيْد الْقَاسِمَ بْنُ سَلَّامٍ : مَا أَتَيْتُ عَالِمًا قَطُّ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ صَبَرْتُ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيَّ، وَتَأَوَّلْتُ قَوْلَ اللهِ عز وجل: (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ)[الحجرات: 5]. [1]

قال الخطيب : وإذا وجده نائماً لا يستأذن عليه ، بل يصبر حتى يستيقظ أو ينصرف ، والاختيار الصبر، كما كان ابن عباس رضي الله عنهما والسلف يفعلون. [2]

كذلك كان من سُنن السلف في توقير أهل العلم:

الدعاء للمشايخ والمعلِّمين:

قال أبو حنيفة: ما صليتُ صلاة منذ مات حمَّاد إلَّا استغفرتُ له مع والدي، وإني لأستغفر لمن تعلمتُ منه علمًا، أو علَّمتُه علمًا. [3]

وكما فعلَ أبو حنيفة مع معلِّمه ، كذلك فعَل به تلاميذُه ، فكان الوفاء من جنس العمل .

قال أبو يوسف القاضي، تلميذ أبي حنيفة:

إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبويَّ، وسمعتُ أبا حنيفة يقول: إني لأدعو لحمَّاد مع والديَّ . [4]

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبي ، يا أبة ، أي رجلٍ كان الشافعي ؟ فإني أسمعك تكثر الدعاء له ، فقال يا بُنيّ : كان الشافعى رحمه الله كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس، فانظر ،

هل لهذين من عِوض أو خَلَف؟! . [5]

فالدعاء للمعلم في حياته وبعد موته أقلُّ ما يُفعل معه ، بأن تذكره بدعوة صالحة، من باب قول الله تعالى:{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} (لقمان:١٤].

فإذا كنتَ أُمِرتَ بشكر الوالدين، فأولى أن تشكر مَن علَّمك، فمن علَّمك حرفاً فاحفظ له وداً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وعلى المتعلِّم أن يعرف حرمة أستاذه ويشكر إحسانه إليه ؛ فإنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله ، ولا يجحد حقه، ولا ينكر معروفه. [6]

ثم قال المصنِّف:" ولا يخرج عن إشارته ،وليجلس بين يديه متأدِّبًا، يُظهِر حاجته إلى علمه:

وهذه مسألة مهمة في أدب الجلوس بين يدي المعلِّم ، فينبغي لطالب العلم أن يلزم مع شيخه الوقار، والتأدّب، والتعظيم، فقد قالوا:"بقدر إجلال الطالب للعالِم بقدر ما ينتفع من علمه".

---

[1] انظر: المجالسة وجواهر العلم(489/4)
[2] انظر: المجموع شرح المهذب(38/1)
[3] انظر: تاريخ بغداد (334/13)
[4] انظر: تهذيب الأسماء واللغات(219/2)
[5] انظر: الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء (ص:74)
[6] انظر: مجموع الفتاوى(13/28)

ومن أصول هذا الباب: ما ورد في حديث جبريل عليه السلام أنه أتى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ﷺ ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ ".[1]

وقد دلَّ حديث جبريل عليه السلام على بعض آداب طالب العلم التي ينبغي للطالب أن يتحلَّى بها ، والتي منها :

أن يحسن الجلوس بين يدي العالِم ، على هيئة التواضع ، وأن لا يسيء الأدب مع شيخه بقول أو فعل أو هيئة ، ويراعي مع ذلك التجّمل وتحسين الثياب في مجالس العلماء ، وفي أبهى صورة " شديد بياض الثياب".

قال أبو العباس القرطبي:وفيه دليلٌ على استحبابِ تحسينِ الثيابِ والهيئة والنظافةِ عند الدخولِ على العلماءِ والفُضَلاءِ والملوك؛ فإنَّ جبريل عليه السلام أتى معلِّمًا للناس بحالِهِ ومقاله.[2]

وكهذا فلتكن هيئة أهل العلم ، من المعلِّمين والمتعلِّمين:

قال عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : الْقَصْدُ وَالْتُّؤَدَةُ وَحُسْنُ السَّمْتِ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ.[3] ، ومعنى " حسن السمت" :أي جمال الهيئة والمنظر.

قال الميموني:

ما أعلم أني رأيتُ أحداً أنظف بدناً ، ولا أشد تعاهداً لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوباً بشدة بياض من أحمد بن حنبل رضي الله عنه.[4]

وقال النووي ،وهو يتحدَّث عن آداب طالب العلم إذا دخل مجالس العلم :

وأن يدخل كامل الهيبة، فارغ القلب من الشواغل، متطهرًا متنظفًا بسواكٍ وقصِّ شاربٍ وظفرٍ ، وإزالةِ كريهِ رائحةٍ .[5]

قال مالك:أستحبُّ الهيئة الحسنة المقتصدة، وأكره السّرف في اللباس والطعام والشراب والمركب، وأكره أن يجعل الرجل في خاتمه الياقوتة ، أوالزبرجدة المرتفعة، وأحِبُ القصد من كل شيء.[6]

وهكذا كان صحابة النبيِّ ﷺ، في أدبهم في مجلس النبي ﷺ :عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، رضي الله عنه ، قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ ".[7]

---

[1] متفق عليه.
[2] انظر: المفهم(137/1)
[3] ذكره مالك في " الموطأ"(1718)بلاغاً ، وسنده صحيح.
[4] انظر: سير أعلام النبلاء(208/11)
[5] انظر: المجموع شرح المهذب (1/ 36).
[6] انظر: موطأ مالك - رواية يحيى (3508)
[7] أخرجه أحمد (18534) وأبو داود (4753) قال ابن القيم: الحديثُ صحيحٌ لا شكَّ فيه.

والتعبير بقوله رضي الله عنه : " كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ " : تُستعمل في لغة العرب كناية عن السكون والوقار والهيبة الشديدة، حتى أنَّ الطير قد يهبط على رؤوسهم ، ولا يخشى تحريكها، وهذا لا يحصل إلَّا إذا جلس الطلاب متأدِّبين، في حالة من الخشية والترقّب، كأنهم أعجاز نخلٍ لا حراك فيها .

قال الخطيب البغدادي: يجب على طالب الحديث أن يتجَّنب اللعب والعبث والتبذّل في المجالس بالسخف، والضحك،وكثرة التنادر، وإدمان المزاح والإكثار منه .[1]

قال بدر الدين ابن جماعة :أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب، كما يجلس الصبي بين يدي المقري ، أومتربعًا بتواضع وخضوع وسكون وخشوع ، ويصغي إلى الشيخ ناظرًا إليه ، ويقبل بكليته عليه متعقّلاً لقوله ، بحيث لا يُحْوِجُه إلى إعادة الكلام ، ولا يلتفت من غير ضرورة.[2]

قال أحمد بن سنان : كان عبد الرحمن بن مهدي لا يُتَحَدَّثُ في مجلسه، ولا يُبرى قلمٌ ، ولا يُبتسم ؛ كأنما على رؤوسهم الطير، فإن رأى أحداً تبسَّم أو تحدَّث ، أو يبري قلماً لبس نعله وخرج .[3]

لله الأمر...والله ، وأنا أتصفّح صفة مجالس علماء السلف الماضيين فلا أدري ماذا يقولون لو طالعوا مجالس العلم في زماننا؟!

وانظر إلى الشافعي كم كان علَمًا في الأدب مع معلِّمه، حيث يقول رحمه الله:

كنتُ أكون في مجلس مالك ، فأريد أن أَصْفَحَ الورقةَ ، فأصْفَحها صَفْحاً رقيقاً، هيبةً له؛ لئلا يسمع وَقْعَها.[4]

وقال الربيع بن سليمان : والله ، ما اجترأتُ أن أشرب الماء ،والشافعيّ ينظر إليَّ ؛ هيبةً له.[5]

قال ابن الخياط في أدب طلَّاب في مجلس الإمام مالك بن أنس :

يدع الجوابَ فلا يراجع هيبةً والسائلونَ نواكسِ الأذقانِ

نورُ الوقارِ وعزُ سلطانِ التقى فهو المهيبُ وليس ذا سلطانِ.[6]

[1] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(156/1)
[2] انظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم(ص/97)
[3] انظر: سير أعلام النبلاء(201/9)، وتذكرة الحفاظ(303/1)
[4] انظر: مناقب الشافعي(ص/145)
[5] انظر: المصدر السابق(ص/145)
[6] انظر: الجامع لأخلاق الراوي(185/1)

ثم قال المصنّف: " وإذا أتحفه المعلّم بفائدة فلا يُظهر أنّه قد عرفها من قبل، وإن كان عارفًا بها."

والمعنى : أنه عندما يُفيدك معلِّمُك مسألة ما، وكنتَ على علم بها فلا تتعجّل ، فتنطق بها مع المعلّم، بل الأدب في ذلك أن تسمع ، لأنك إن نطقت وسبقته ، فكأنك تقول له بلسان الحال:

"أنا أعرفها، ما جئتَ بجديد!"، أضف إلى ذلك ما قد يدخل في هذا من طائف الرياء.

بل لابد أن تسمع، وتستمع وتصغي إلى كل ما يخرج من فمِ معلِّمك ، حتى وإن ذكر لك أمراً تعلمه فكأنك لم تسمع بها من قبل.

قال عطاء بن أبي رباح : إنَّ الرجل ليحدِّثني بالحديث ، فأنصت له كأنْ لم أسمعه قط، وقد سمعته قبل أن يولد.[1]

وقال خالد بن صفوان : إذا رأيتَ محدّثاً يحدِّث حديثاً قد سمعتَه ، أو يخبر بخبر قد علمته ، فلا تشاركه فيه ؛ حرصاً على أن يعلم مَن حضر أنك قد علمته ؛ فإنَّ ذلك خفة فيك ، وسوء أدب.[2]

وهذا والله ، لمن لطيف الإجلال ودقائق الأدب مع الشيخ ؛ فإنّ هذا العلم الذي أتعب الشيخُ نفسه في تحصيله ونقله وجمعه، لا يليق بك أن تُظهر أنك كنتَ تعلمه .

قال عبد الله بن صالح العجلي : كان رجل من ولد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يجلس في مجلس ابن السمَّاك ، فكان يطيل السكوت ، فقال له ابن السمَّاك ذات يوم: يا فتى ، ألا تخوض فيما يخوض فيه القوم من الحديث؟ فقال: إنما قعدتُ لأسمع، وأنصت لأفهم.[3]

وقال يحيى بن خالد لولده :" يا بنيّ ، إذا حدّثك جليسك حديثاً ، فأقبل عليه وأصغِ إليه، ولا تقل قد سمعته ، وإن كنتَ أحفظ له، وكأنك لم تسمعه إلاّ منه، فإنّ ذلك يكسبك المحبة والميل إليك.[4]

وليعلم أنَّ كثيراً من المعلِّمين لا يُحبّون الطالب الثرثار ، كثير الكلام ، الذي يكثر من مقاطعة شيخه فيشتت أفكاره ،ويضيّع الفهم على باقي الطلاب ، فإذا جالستَ معلِّمك فالزم كثرة الصمت. قال الخطيب البغدادي:ومن الأدب إذا روى المحدِّث حديثاً فعرض للطالب من خلاله شيء يريد السؤال عنه، أن لا يسأل عنه وهو في تلك الحال ، بل يصبر حتى يُنهي الراوي حديثه ، ثم يسأل عمَّا عرَض له.[5]

---

[1] انظر: تهذيب الكمال(53/13) وسير أعلام النبلاء(86/5)
[2] انظر: الآداب الشرعية (264/2)
[3] انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء(209/8)
[4] انظر: بهجة المجالس(ص/5)
[5] انظر: الجامع لأخلاق الراوي (1/ 209).

قال الحسنُ بن علي رضي الله عنهما لابنه: يا بُنيّ ! إذا جالستَ العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّم حسن الصمت، ولا تقطع على أحدٍ حديثاً ،وإن طال حتى يُمسك.[1]

وتأمَّل في حال أَبِي سَلَمَة،عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف، مع ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما :

قال الزهري: كان أبو سلمة يسأل ابنَ عباس رضي الله عنهما ، فكان يَخْزُن عَنْهُ، وكان عبيد الله يلطفه فكان يغرَّه غرَّاً . [2]، أي يطعمه كما يُطعم العصفور صغيره .

وذلك أنَّ أبا سلمة كان كثيراً ما ينازع ابنَ عباس رضي الله عنهما في المسائل ويماريه .

وقد ندم أَبِو سَلَمَةَ على جداله ومماراته لابن عباس رضي الله عنهما حتى قال :لوْ رَفَقْتُ بِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، لَأَصَبْتُ مِنْهُ عِلْمًا كَثِيرًا .[3]

وكان ابن جُريج قد لازم عطاء بن أبي رباح عشرين سنة، فاستخرج منه علمًا يُحمَل على ظهور الجمال ، وسرّ فوزه بذلك ذكاؤه في اغتنام خلوات شيخه، وصفاء ذهنه.

العلم خزائن يفتحها حسن السؤال :

قال الزهري: "إنما هذا العلم خزائن ، وتفتحها المسألة ".[4]، ومن تأمَّل كلام الإمام الزهري عَلِم أنَّ رأس الأمر في كسب العلم -بعد فضل الله تعالى-ينبني على حسن تعامل الطالب مع شيخه .

قال مطرف بن عبد الله اليساري:

حدثنا مالك بن أنس قال: "كنت آتي نافعاً مولى ابن عمر رضي الله عنهما نصف النهار، ما يُظلني شيء من الشمس، وكان منزله بالنَّقِيع بالصُوريْن، وكان فيه حدة ، فأتحيَّن خروجه ، فيخرج فأدعه ساعة، وأُريه أني لم أُرده، ثم أعرض له فأسلِّم عليه، ثم أدعه حتى إذا دخل البِلاط"، أقول: "كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيقول قال: كذا وكذا، فَأَخْنس عنه".[5]

أما ابن أبي أُويس فلم يَظهر له من نافع علم كثير، لأنه لم يصبرعلى شدّته ، أما مالك، فلزمه وخفض له الجناح ، فارتفع. ... " ارفق بشيخك ....تظفر بقصدك".

---

[1] انظر: جامع بيان العلم وفضله (127/1)

[2] انظر: فضائل الصحابة (2/ 959) .

[3] أخرجه الدارمي(426) والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (1/ 209) رقم (382)،وإسناده صحيح.

[4] انظر: الفقيه والمتفقه(62/2)

[5] انظر : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك(132/1) وسير أعلام النبلاء(107/8)وتاريخ ابن عساكر (259/17)

وقوله: أَخْنَس عنه: أتخلف وأتوارى عنه. (انظر: المعجم الوسيط 1/ 230. مادة: خَنَسَ).

ثم قال المصنّف: " وإذا أخطأ المعلِّمُ في شيء فلتنبُهْ برفق ولطف، بحسب المقام "

وهذه مسألة مهمة في آداب الطالب مع معلِّمه، وهي: أدب المراجعة.

فإذا أخطأ المعلِّمُ في مسألة ما فمن الأدب ألّا تُظهر خطأه صراحة ، بل يستعمل أدب المراجعة.

مثال ذلك : قال المعلِّم -مثلاً- في الحديث: "حجّ آدمَ موسى"، ونطقها هكذا على وجه اللحن، بنصب لفظة آدم عليه السلام ،فلا يصحّ أن تُصحّح له أمام طلابه فتُحرجه ، بل تنبّهه بأدب في صيغة المستفهم: "سيدي، هل لمَا قلته وجهٌ في اللغة ؟".

مثال آخر:

يقول المعلِّم على سبيل المثال : " المعتمد عند المالكية جواز إخراج زكاة الفطر في أوّل رمضان" ، وأنت تعلم أنَّ هذا هو المعتمد عند الشافعية ، فالأدب في ذلك أن تقول:

"سيدي، أعلم أنَّ المعتمد عند الشافعية جواز إخراجها في أول رمضان ، فهل هذا أيضاً هو المعتمد عند المالكية " ؟ ولو كانت تلك المراجعة بينك وبينه بعد الدرس لكان أولى وأفضل.

قال أبو عبيدة:«لا تَرُدَّنَّ على أحدٍ خطأً في حَفْلٍ، فإنه يستفيد ،ويتخذك عدواً » .[1]

قال العلاء بن الحسين :

حدَّثنا سفيان بن عيينة حديثاً في القرآن ، فقال له عبد الله بن يزيد: ليس كما هو حدّثتَ يا أبا محمد ، قال: وما علمك يا قصير؟ قال: فسكتَ عنه هُنَيّة ، ثم قام إلى سفيان فقال: يا أبا محمد ، أنت معلمنا وسيدنا ، فإن كنتُ أوهمتُ فلا تؤاخذني ، قال: فسكتَ سفيان هُنَيّة ،ثم قال: يا أبا عبد الرحمن ، قال لبيك وسعديك ، قال : الحديث كما حدثتَ أنت ، وأنا أوهمتُ .[2]

قال محمد بن القاسم العثماني:

جئتُ مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهري، فكان مما قال: " إنَّ النبيَّ ﷺ طلَّق وظاهر وآلى ، فلما خرج تبعته حتى انفض عنه الناس ، وبقيتُ وحدي معه، فقلتُ له:

سمعتك تقول: آلى رسول الله ﷺ ، وصدقتَ، وطلَّق رسول الله ﷺ ، وصدقتَ ، وظاهر رسول الله ﷺ ، وهذا لم يكن، ولا يصح أن يكون؛ لأنَّ الظهار منكر من القول وزور، فضمني إلى نفسه وقبَّل رأسي، وقال لي:"أنا تائبٌ من ذلك، جزاك اللهُ تعالى عني من معلِّم خيراً".

ثم انقلبتُ عنه، وبكَّرتُ إلى مجلسه في اليوم الثاني، فألفيته قد سبقني إلى الجامع، وجلس على المنبر، فلما دخلتُ من باب الجامع ورآني نادى بأعلى صوته:

"مرحبا بمعلِّمي؛ أفسحوا لمعلِّمي" ، فتطاولتْ الأعناق إليّ، وحدقت الأبصار نحوي، وأنا لعظم الحياء لا أعرف في أي بقعة أنا من الأرض، وأقبل الشيخ على الخلق، فقال لهم :

---

[1] انظر: الفقيه والمتفقه(288/2)
[2] انظر: الكفاية في علم الرواية(ص/146)

" أنا معلِّمكم، وهذا معلِّمي ". قال ابن العربي معلّقاً :

"فانظروا إلى هذا الدِّين المتين، والاعتراف بالعلم لأهله على رؤوس الملإ من رجل ظهرتْ رياسته، واشتهرتْ نفاسته، لغريبٍ مجهول العين ،لا يُعرف، فاقتدوا به ترشدوا". [1]

قال الدارقطني : حضرتُ مجلس أبي بكر بن الأنباري، يوم الجمعة فصحَّف اسماً، فأعظمت له أن يُحمل عنه وهم، وهبتُه، فلما انقضى المجلس، عرَّفت مستمليه ،فلمَّا حضرتُ الجمعة الثانية، قال ابن الأنباري، للمستملي: عرِّف الجماعة أنَّا صحَّفنا الاسم الفلاني، ونبهنا ذلك الشاب على الصواب.[2]

وهذا عبد الله بن وهب المصري أخص تلاميذ الإمام مالك رحمه الله ، يقول:

«سمعتُ مالكًا سُئِلَ عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء، فقال: ليس ذلك على الناس،

قال: فتركته حتى خَفَّ الناس، فقلتُ له: عندنا في ذلك سنة، فقال: وماهي؟ قلت: حدَّثنا الليث ابن سعد وابن لهيعة وعمرو بن الحارث، عن يزيد بن عمرو المعافري، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن المستورد بن شداد القرشي قال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدلِّكُ بخنصره ما بين أصابع رجليه، فقال مالك : إنَّ هذا الحديث حسن، وما سمعتُ به قط إلَّا الساعة، ثم سمعته بعد ذلك يسأل فيأمر بتخليل الأصابع». [3]

وهذه هي طريقة أهل الأدب والعلم في مراجعة المعلّمين ، لا تكون بنشر المعايب، ولا بإعلاء المثالب ، ولا بالتشهير ، بل بالرفق والأدب.

أما بعض الطلاب هداهم الله تعالى، فتراهم طلابُ عثراتٍ وفتنٍ ، لا طلاب علمٍ وسننٍ، حالهم كالذباب ، لا يقع إلَّا على الرديء من القول، فإذا رأى خطأً للمعلِّم أذاعه على رؤوس الناس ، وتصيَّد الزلَّات ، نهجه دؤوب في الرمي بالجرح والتجريح ، وديانته لزوم القدح بالتصريح قبل التلميح ، ومثل هذا الطالب سيِّئ النّية، خبيث الطوية لا يُوفّق لا لعلمٍ ولا لعمل.

قال الله تعالى: {فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ} [الرعد: 17].

قال ابن حزم :

إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلَّا حضور مستزيد علمًا وأجرًا، لا حضور مستغنٍ بما عندك ؛ طالبًا عثرةً تُشِيعها، أوغريبةً تُشنعها، فهذه أفعال الأرذال، الّذين لا يفلحون في العلم أبدًا، فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصلت خيرًا على كل حال، وإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك ،وأكرم لخلقك وأسلم لدينك . [4]

---

[1] انظر: أحكام القرآن (250/1)
[2] انظر: تذكرة الحفاظ(42/3)
[3] انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم(1/ 31)
[4] انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس(ص/92)

وماذا سيستفيد هذا الطالب مريض القلب والنفس من نشر زلَّات أهل العلم وعثراتهم ، وما الفائدة العائدة من إسقاط الشيخ لزلة ما؟!

قال محمد بن إسماعيل البخاري : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول "إنما الناس بشيوخهم ، فإذا ذهب الشيوخ فمع من العيش؟! [1]

إنَّما العلماء في الناس.. كاليواقيت والدُرر والماس...

ثم قال المصنِّف:

" من أعظم ما يجب للمعلِّمين أن يقولوا لما لا يعلمونه : "الله أعلم"، وليس هذا بنقصٍ فيهم، بل هو ممَّا يزيدهم قدرًا، ويُستدلُّ به على ديانتهم، وتحرِّيهم للصواب.

وهذه الكلمة ، التي هي قول الشيخ لما لا يعلمه " الله أعلم" ، ليست بالهيِّنَة، خاصَّةً حينما يسئل المعلِّم عن مسألة ما ، فيرقب الطلَّابُ معلِّمَهم، وتتَّجه إليه الأنظار، وينتظرون ما يصدر عنه من قولٍ ، فكونه يقول لم لا يعلم: "لا أعلم" فهذا أمرعظيم ، يدل دلالة ظاهرة على إخلاص المعلِّم لله تعالى وعظيم خشيته له سبحانه ؛ فإنَّ المعلِّم ما قال ذلك إلَّا لعلمه أنَّ القول على الله تعالى بغير علمٍ أمرٌ عظيم، بل إنَّ هذا من كبائر الأمور ، قال الله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 36]

والقول على الله تعالى بغيرعلم قد أُسستْ عليه البدعُ والضلالات، فكل بدعة مضلّة في الدِين أساسها القول على الله تعالى بلا علم، وفيه تغييرٌ لدين الله تعالى، وتبديلٌ له، لذا فقد قرَن الله تعالى بينهما ، كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)(الأعراف:33)

وبالإضافة إلى كون الفتيا بلا علمٍ كذبٌ وافتراء على الله تعالى فهو - أيضًا - سببٌ لإضلال الناس، فكان ذلك مثل السُنَّة السيئة التي على صاحبها وزرها ،ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تعالى لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رؤوسا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا".[2]

ولما تعجَّل مُوسَى عليه السلام في الجواب عن سؤال رجلٍ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ له: هلْ تَعْلَمُ أحَدًا أعْلَمَ مِنْكَ؟ فَقالَ مُوسَى عليه السلام :

لَا، فَأُوحِيَ إليه ربُّه تبارك وتعالى ، بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إلى لُقِيِّهِ.[3]

---

[1] انظر: طبقات الحنابلة(274/1)

[2] أخرجه البخاري(100)ومسلم(2673)، واللفظ للبخاري.

[3] متفق عليه.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

من علِمَ شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم ؛ فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ تقول لِمَا لَا تعلم لَا أَعْلَمُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}.(ص:86) ".[1]

تأمَّل قوله: " مِنَ الْعِلْمِ أَنْ تقول لِمَا لَا تعلم " لَا أَعْلَمُ، "، أي أنَّ قولك عمَّا لا تعلمه "لا أعلم" ، هو في ذاته علم ؛ لأنك لم تقلْه جهلًا، بل قلته علمًا بحرمة وخطورة القول على الله تعالى بلا علم، وقد عقد ابنُ مفلح في كتاب "الآداب الشرعيَّة "فصلًا بعنوان: "قول العالِم: لا أدري"، وذكر فيه قول الشعبي: "نصف العلم: لا أدري".

وقال القاسم بن محمد: لأنْ يعيش المرءُ جاهلًا، خيرٌ له من أن يتكلَّم على الله تعالى ، ورسوله ﷺ بما لا يعلم .[2]

قال عبد الرحمن بن مهدي :

كنَّا عند مالك بن أنس، فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله ، جئتك من مسيرة ستة أشهر ، حمَّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها، قال: فسلْ ، فسأله الرجل عن مسألة ، فقال الإمام مالك : «لا أحسنها» ، قال: فبُهت الرجل ، كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء، فقال: فأي شيء أقول لأهل بلدتي إذا رجعتُ لهم؟ قال: " تقول لهم: قال مالك:" لا أحسنها" .[3]

فهذا هو الإمام مالك ، الذي ذاع صيتُه، وبلغ الآفاقَ علمُه ،لم يرَ في قولِه "لا أُحسن" منقصة، بل كان ذلك من تمام علمه ، وكمال ديانته وإخلاصه .

قال أحمد بن عمرو بن سرح، سمعت ابن وهب يقول:

لو أردتُ أنصرف كل يوم بألواحي ملأى عند مالك بن أنس فيما يسأل ويقول :" لا أدري" لانصرفتُ بها، وقد صار لا أدري عند أهل زماننا هذا عيباً.[4]

لقد علِم الأئمة أنَّ الفتوى في دين الله تعالى بمثابة توقيعٍ عن الله عزوجل، ولذلك صنَّف الإمام ابن القيم كتابه القيّم : "أعلام المُوقِّعين عن ربِّ العالمين" ، فكان مما قال فيه:

وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحلِّ الذي لا يُنكَر فضله، ولا يُجهَل قدرُه، وهو من أعلى المراتب السنيَّات، فكيف بمنصب التوقيع عن ربِّ الأرض والسماوات؟!

كيف وهو المنصب الذي تولَّاه بنفسه ربُّ الأرباب، فقال تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [النساء: 127] ، وَلْيعلم المفتي عمَّن ينوب في فتواه، وَلْيوقن أنه مسؤول غدًا وموقوف بين يدي الله عزوجل .[5]

---

[1] أخرجه البخاري(4496)
[2] انظر: تاريخ دمشق (176/9)
[3] انظر: جامع بيان العلم وفضله(838/2)
[4] انظر: الكامل في ضعفاء الرجال(170/1)
[5] انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين(18/1)

فإن قيل : وكيف التخلّص من ثقل " لا أدري"؟

فالجواب: من وجوه :

1-الأول: أنَّ أصل الدواء في هذا الباب هو تحقيق الإخلاص، كما قال ابن الجوزي

إذا صح قصد العالِم، استراح من كلف التكلُّف؛ فإنَّ كثيرًا من العلماء يأنفون من قول: " لا أدري" ، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس، لئلا يقال: جَهِلوا الجواب، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا، وهذا نهاية الخذلان .[1]

2-الثاني:

أن يعلم كل معلِّمٍ أنَّ قوله لما لا يعلم:" الله أعلم "، لا يُنقص قدَره، بل هذا مما يَزيد قدرَه في أعين طلابه ، لأنه يُستدَلُّ به على كمال ديانته وأمانته، وتحرّيه للصواب، وعلى رسوخه ؛ حيث إنَّ المعلِّم إذا توقَّف فيما لا يعرف ، دلَّ ذلك على إتقانه فيما يعرف.

3-الثالث:

أنَّ مَن عُرِف منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم، كان ذلك داعيًا للريب في كلِّ ما يتكلَّم به، حتى في الأمور الواضحة ،وهذه والله من أخطر الأمور،حين تُفقد الثقة كلام المعلِّم وما يفتي به.

4-رابعاً: أنك قبل أن تشغل نفسك بالبحث عن مخرج للسائل ، فتذكَّر موقفك بين يدي ربك يوم القيامة. قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن :

قال لي ابن خَلْدَةَ - وكان نعم القاضي ، يا ربيعة، إني أرى الناسَ قد أحاطوا بك، فإذا سألك الرجلُ عن مسألة فلا تكن همتك أن تُخلّصه ،ولكن لتكن همتك أن تُخلّص نفسك.[2]

وقد يقول قائل:"وإنْ أجبتُ عن مسألةٍ ما لا أعلمها، وكان جوابي صوابًا؟

" نقول: قد أخطأتَ ؛ لأنك تكلَّمتَ بلا علم، وأصبتَ من غير بيّنة ، فالله تعالى لا يُثيبك على مصادفتك للحق، إنما يُثيبك على القول المبنيِّ على علمٍ وهدًى ؛ ولذلك فإنَّ المعلِّم إذا تحدَّث فيما لا يعلم، فقد أخطأ، وإنْ وافقَ الحق؛ لأنَّه لم يتكلَّم عن علم، بل وافق الصوابَ من غير بيّنة.[3]

---

[1] انظر: صيد الخاطر(ص/220)

[2] انظر: المعرفة والتاريخ(556/1)، وإبطال الحيل (ص/ ١٢٣)والفقيه والمتفقه(358/2)

[3] وأقول هنا ، إنني لا أنسى ما حييتُ موقفاً لعلَم من أعلام هذه الأمة الوَلود، ومحدِّثها الفاضل ، الشيخ أبي إسحاق الحويني، رحمه الله، حيث كان في درسٍ مباشر على إحدى القنوات ، فجاءه سؤالٌ في الفرائض، فما أن بدأ السائل سؤاله حتى قاطعه الشيخ، وقال : "لا أعلم في الفرائض"، وكان ذلك في تواضُعٍ ظاهرٍ، وإخلاصٍ عظيم ، نحسبه كذلك ،رحمة الله تعالى عليه.

ثم قال المصنِّف بعد ذلك:

" والحذرَ الحذرَ من التعصُّبِ للأقوالِ والقائلين، وهو أن يجعلَ القصدَ من المناظرة نُصرةَ القولِ الذي قاله ؛ فإنَّ التعصُّب مُذهب للإخلاص ".

مسألةُ التعصُّب للشيخ مسألةٌ هي في الحقيقة مأساة كل زمان ، وذلك حين يجعلُ الطالبُ معلِّمَه صنمًا ، يُعظِّمُه ويُقدِّمُ قولَه على قول كل أحدٍ ، كائناً من كان ، حتى يجعله مرجعًا لا يُخالَف ، بل ويجعلُ قولَ شيخِه صوابًا لا يحتملُ الخطأ، وقولَ غيرِه خطأ لا يحتملُ الصواب.

فترى من عجيب المحدثات حين يُعظَّم قولُ الشيخ كتعظيم أدلة الشرع ، أو يُقدَّم قوله على صحيح الأدلة الشرعية ، بدعوى أنه أفهم لمرادها ومحل إنزالها ، فليس هذا هو سبيل الميزان العلمي القويم ، بل هو سبيل القيد القهري والتقليد الأعمى .

وكأنَّ هذه السُنّة المحدثة وقعت تحقيقاً لنبوءة النبي ﷺ حين قال:

" لتتَّبعنَّ سَنَنَ من كانَ قبلَكم حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ ،حتَّى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لدخلتُموه، قالوا: اليَهودُ والنَّصارى؟ قالَ: فمَن" .[1]

وذلك حيث ترى مِن هؤلاء الأتّباع غلوّاً في معلِّميهم ومشايخهم ، كمن قال الله تعالى فيهم (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ)(التوبة:31) ،وعلى غرار ما نسبه النصارى إلى المسيح عليه السلام أنه قال:

"أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يستطيع أن يأتي إلى الأب إلَّا بواسطتي" **(يوحنا 14: 6)**

وكل هذا من الخطأ البيّن ؛ فإنَّ دور المعلِّمِ والشيخِ في طريق الطالب يوضح له مبهمات المسائل ، ويفتح له مغاليق العلم ، دون أن يجعل الطالبُ شيخَه محلاً للغلو والتقديس

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:ومن نصَّب شيخاً كائناً من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول، والفعل فهو من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً.[2]

وقال رحمه الله :

فالحذر الحذر أيّها الرجل من أن تَرُدَّ شيئًا ممّا جاء به الرسولُ ﷺ ،لأجل هواك أو انتصاراً لمذهبك أو لشيخك ؛ فإنَّ الله تعالى لم يوجب على أحدٍ طاعة أحدٍ إلَّا طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والأخذ بما جاء به ، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتَّبع الرسول ﷺ ما سأله تعالى الله عن مخالفة أحد .[3]

وانتبهوا ؛ فهذه مسألة من الأهمية بمكان :

---

[1] أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
[2] انظر: مجموع الفتاوى(20/8)
[3] انظر: المصدر السابق(526/16)

فإنَّ الشيخ وإن كان ثقة ، علَماً ، فإنَّه لا يخلو من جريان قلم الخطأ والزلل على بعض أقواله أو ترجيحاته، ولا شك أنَّ هذا مما يُغمر في بحر ما قدَّم من عطاء ونفع للأمّة ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث .

لذا فإنه من مصائب هذا الزمان أن ترى الطالب مقلِّداً لشيخه منتصراً له في كل صغير وكبير، متعصّباً له في كل أقواله ، صحيحها وسقيمها ، من غير تحرّي ولا تروّي ، وقد غفل هذا المسكين عن حقيقة مهمة ، وهي أنَّ أقوال شيخه هذا أغلبها قد قالها تقليداً لغيره ، أو حتى اجتهادات له قد بُنيت على ظواهر الأدلة الشرعية، فليست أقوالاً مجمعاً عليها مثلاً ، لذا فإنَّ الانتصاب لهذه الترجيحات تحيزاً وموالاةً ومعاداةً يعتبر من طرائق أهل البدع ، الذين جعلوا سيماهم التبنّي ثم التحلّي ، فهم يتبنون أقوالاً ثم يبحثون لها عمَّا يحليها من أدلة الشرع .
إنَّ ذاك الطالب إنما يفعل ذلك ظناً منه أنَّ هذا هو الوفاء لشيخه ومعلِّمه ، وقد غفل هذا المسكين عن الفرق بين الولاء والوفاء :

فالولاء إنما يكون لهذا الدِين ؛ إذ إنَّه شرعٌ محفوظٌ معصومٌ ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد .

وأما الوفاء: فيكون مع المعلِّم والشيخ ، وذلك بأن يَنشر الطالب علمَه ، ولا يكفُّ عن الدعاء له ، وألَّا يجحد فضله عليه ،وأنْ يجعل قول شيخه مما يُستدل له ، وليس مما يُستدل به ، ويأتي على رأس ذلك بَذلُ وإسداء النصح لشيخه حال العثرات والهفوات .

قال ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما :
وَيلٌ للأتْبَاعِ مِن عَثَراتِ العالِمِ! قيل: كيف ذلك؟ قال: يقولُ العالِمُ شيئًا برَأْيِه، ثُمَّ يجِدُ من هو أعلَمُ برَسولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عليه وسلَّم - منه؛ فيَترُكُ قَوْلَه ذلك ، ثُمَّ يَمضي الأتباعُ .[1]
قال ابن رجب:
كثيرٌ من أئمة الدِّين قد يقول قولًا مرجوحاً ، ويكون مجتهداً فيه ، مأجوراً على اجتهاده فيه، ، ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة؛ لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلَّا لكون متبوعه قد قاله، بحيث إنه لو قاله غيرُه من أئمة الدِّين، لما قَبِلَه ،وهو مع هذا يظن أنه إنّما انتصر للحق بمنزلة متبوعه، وليس كذلك، فإنَّ متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق، وإن أخطأ في اجتهاده، وأما هذا التابع، فقد شاب انتصارَه لما يظنه الحق إرادةُ علو متبوعه، وظهور كلمته، وهذه دسيسة تقدح في قصد الانتصار للحق، فافهم هذا، فإنه فهمٌ عظيم.[2]

والقارئُ المتصفِّحُ لأقوالِ الأئمّة لا يخفى عليه حقيقة ذمِّهم للتعصُّب ، فقد أكدوا أنَّ اتِّباع أدلة الكتاب والسنة مقدَّمٌ على كل شيء،وأن يُضرب بقولهم عُرض الحائط إذا وجدوه مخالفاً للمنقول.

[1] رواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (2/ 14)، وابن حزم في "الإحكام" (6/ 99)، وابن عبد البر في "الجامع" (1877) وقال مشهور بن حسن آل سلمان : "إسناده صحيح" .
[2] انظر : جامع العلوم والحكم(267/2)

قال الإمام أبو حنيفة :إذا صح الحديث فهو مذهبي "[1] ، وقال :" لا يحل لأحدٍ أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه" .[2]

وقال الإمام مالك :إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي ، فكل ما وافق الكتابَ والسنةَ فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه .[3]

وقال الإمام الشافعي :أجمع الناسُ على أنَّ من استبانت له سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحدٍ.[4]

وقال رحمه الله:إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلتُ.[5]

وقال الإمام أحمد : لا تقلّدني ،ولا تقّلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا.[6]

وما أجملَ قولِ الإمامِ أحمد:عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.[7]

فانظر كيف علَّموا الناسَ التحرُّرَ من التعصُّب والتحزّب الأعمى ، وكان هؤلاء الأئمة الأعلام مع وافر علمهم، وسابغ فضلهم لا يرونَ أنفسَهم فوقَ مستوى النقد ، بل يَدينون للهِ تعالى بالرجوعِ إلى الحقِّ متى ظهر ، فيجمعون الناس على السنن والآثار، لا على الجماعات والأشخاص .

وتأمَّل قول الله تعالى (وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ)(المائدة:116)

والشاهد هنا - الذي أردنا منه المعنى العام ، مع اختلاف التطبيق- أنَّ الأنبياء عليهم السلام مع كون مناهجهم معصومة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، إلَّا أنهم أُمِرُوا ألَّا يعلِّقوا الناس بأشخاصهم وآرائهم ، وإنما أُمِروا أن يأخذوا الناس إلى رب الناس .

---

[1] نص العراقي في "المستخرج على المستدرك" (ص15) وابن عابدين في "حاشيته على الدر المختار" (67/1) على صحة هذه المقالة عن أبي حنيفة رحمه الله.

[2] انظر: "تاج التراجم" (ص92) و"إعلام الموقعين" (79/1) .

[3] أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (775/1)

فائدة:

قد أشتهر عن مالك عبارة :"كل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر، يعني النبي ﷺ"،لكنه لم يصح مسندًا إلى الإمام مالك، لكن روي ذلك عن غيره مثل ابن عباس ومجاهد :

أما أثر ابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (ج11/ص339)عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما،قال: ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ."إسناده صحيح".

وأما أثر مجاهد: فقد أخرجه البخاري في قرة العينين (ص73) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ج2/ص926) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص107) وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (ج3/ص300) كلهم من طريق عبد الكريم، عن مجاهد قال: "ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك، إلا النبي ﷺ" ،إسناده صحيح وعبد الكريم هو ابن مالك الجزري.

[4] انظر: إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار(ص/103)

[5] انظر: المجموع(63/1)

[6] انظر: إيقاظ الهمم(ص/113)وأعلام الموقعين(183/2)

[7] انظر: الجامع لعلوم الإمام أحمد (195/5)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

وليس للمعلِّمين أن يحزِّبوا الناس ، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى ، كما قال تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} .[1]

قال الذهبي:فإنْ آنستَ يا هذا من نفسك فهماً وصدقاً وديناً وورعاً ، وإلَا فلا تتعنَّ ، وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأيٍ ولمذهبٍ فبالله لا تتعب .[2]

قَالَ عُرْوَةُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ ؟ تُرَخِّصُ فِي الْمُتْعَةِ ، وأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ لَمْ يَفْعَلَا "! أي المتعة في أشهر الحج"، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما:

وَاللَّهِ مَا أَرَاكُمْ مُنْتَهِينَ حَتَّى يُعَذِّبَكُمُ اللَّهُ، أُحَدِّثُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتُحَدِّثُونَنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ.[3]

قال الخطيب البغدادي" معلِّقاً ":قد كان أبو بكر وعمر- رضي الله عنهما-على ما وصفهما به عروة ، إلَّا أنه لا ينبغي أن يقلَّد أحدٌ في ترك ما ثبتت به سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.[4]

قال الغزالي: "من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال".[5]

ولْيعلم كل طالب للعلم والهدى أنَّ الحقَّ لا يُعرف بالرجال، بل يُعرف الرجالُ بالحق؛ فالحقُّ ما وافق الدليلَ من غير التفاتٍ إلى كثرة المقبِلين، أو قلة المُعرضين، والحق لا يُوزن بالرجال، وإنما يُوزن الرجال بالحق، ومجرد نفور النافرين ، أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قول أو فساده، بل كل قول يُحتج له خلا قول النبيَّ صلى الله عليه وسلم فإنه يُحتج به .

قال الشاطبي:
ولقد زَلَّ - بسبب الإعراض عن الدليل، والاعتماد على الرجال- أقوامٌ خرجوا بسبب ذلك عن جادّة الصحابة والتابعين، واتبعوا أهواءهم بغير علم؛ فضلّوا عن سَواءِ السبيل"....، ولْنذكُرْ عشرة أمثلة:

أحَدها،قول مَن جعل اتِّباع الآباء في أصل الدين هوالمرجوع إليه دون غيره، حتى ردُّوا بذلك براهينَ الرسالة وحجةَ القرآن ،ودليلَ العقل، فقالوا(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) (الزخرف:22).[6]

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (28/15)
[2] انظر: تذكرة الحفاظ(10/1) ومعنى قوله رحمه الله: "وينكبُّ الزَّغل" : ينكب: يميل ، و"الزغل": الغش.
وقوله رحمه الله: " فعلم الحديث صَلِفٌ ": صَلِفَ: ثقلت روحه، والمراد أنه علم صعب.
انظر: المعجم الوسيط (395/1) ، مادة (زغل)،ومادة (صلف)
[3] أخرجه عبد الرزاق في "المصنَّف"(2377)وابن حزم في "حجة الوداع"(391) وابن القيم في " الزاد " (206/2) ،وصحح إسناده محققا " زاد المعاد " ، وصححه العلامة أحمد شاكر في تحقيق "المسند" (3121)
وقد ورد هذا الأثر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بلفظ : "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتقولون: قال أبو بكر وعمر" ،وهذا الأثر بهذا اللفظ لا أصل له .
انظر : إسعاف الأخيار بما اشتهر و لم يصح من الأحاديث والآثار والقصص والأشعار(265/2)
[4] انظر: الفقيه والمتفقه(ح/373)
[5] انظر : إحياء علوم الدين(23/1)
[6] انظر : الاعتصام (٨٦٣/٢)

قال ابن المبارك رداً على من احتج في إباحة النبيذ بأسماء بعض أهل العلم:
دعوا عند الاحتجاج تسمية الرجال؛ فرب رجلٍ في الإسلام مناقبه كذا وكذا، وعسى أن يكون منه زلة، أفلأحدٍ أن يحتج بها؟! [1]

بل ويبيّن الإمام ابن رشد أنه كم من أقوال شاعت بين الناس ،وصارت أصولاً متبَعة قرناً بعد قرن ، أقوال تكاد الفطرة السليمة لا تقبلها، والعقل البشري لا يُسيغها، فما ذاعت ولا انتشرت ولا اشتهرت إلَّا تعظيماً لأصحابها ، فقال رحمه الله:
ولولا النشأة على هذه الأقاويل ،وعلى التعظيم للقائلين بها ، لما أمكن أن يكون فيها شيء من الإقناع ، ولا وقع بها التصديق لأحد سليم الفطرة. [2]

وهذا مثال حيٌّ على التعصّب للمذهبية:

قال أبو عبد الله بن منده: حُدِّثت عن الربيع، قال: رأيتُ أشهبَ بنَ عبد العزيز ساجداً يقول في سجوده: " اللهم أمتَ الشافعي؛ فإنك إنْ أبقيته اندرس مذهب مالك". [3]

ثم قال المصنّف:

" ومن أعظمِ ما يَتعيّنُ على أهلِ العلم: الاتّصافُ بما يَدعو إليه العلمُ من الأخلاقِ والأعمالِ والتعليم، فهم أهلُ العلمِ بالأخلاقِ الجميلةِ، والتخلّي عن كلِّ خُلُقٍ رذيلٍ "..

هذا الكلامُ مهمٌّ جدًّا: فالمصنّفُ يُركّز على مسألةٍ مهمة ، وهي أنَّ حاملَ علمٍ، مُعلِّماً كنت أو مُتعلِّماً لابدّ أن يظهرَ هذا العِلم على أخلاقه وآدابه، لأنّ هذا العِلمَ إن لم تعملْ به، عِلمًا وعملاً وخُلُقًا، صار حجّةً عليك ، وذلك لأنّ الأعينَ ترقبُ طالب العلم،وتقفُ له بالمرصاد، فما دُمتَ قد حملتَ علمًا، فلابدّ أن يَطْفَحَ هذا العِلم على الجوارح، وإلّا جعلت عرضَك تلوكهُ ألسنة الناس.

وخُذْ هذه القاعدة :

كما أُمرنا ألّا نخوضَ في أعراضِ الناس، أُمرنا أن نَحفَظَ أعراضَنا عن ألسِنةِ الناس،ومستند ذلك ما ورد في حديث صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها:

" أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ كان مُعْتَكِفًا فَانْقَلَب مَعَها ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ "، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا". [4]

وكذلك لمَّا ترك النبيُّ ﷺ الاجتماع بالصحابة رضي الله عنهم على قيام رمضان في اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ، قَالَ: "إِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ، فَتَعْجِزُوا عَنْهَا ". [5]

---

[1] انظر : السنن الكبرى للبيهقي(1/ 298)
[2] انظر : الكشف عن مناهج الأدلة(ص/77)
[3] انظر: تاريخ دمشق(428/51)وسير أعلام النبلاء(170/10) وعيون الأخبار(114/3)
[4] متفق عليه.
[5] متفق عليه.

فهذا فيه أنَّ الكبير إذا فعل شيئًا خلاف ما اعتاده أتباعه أنه يبيّن لهم عذره وحكمه والحكمة فيه ؛ تطييباً لقلوبهم، وإصلاحًا لذات البين؛ لئلا يظنوا خلاف هذا . [1]

وقد ذكر جمال الدين القاسمي من جملة آداب طالب العلم:

أنه إذا ترخَّص في أمر جائز وخِيفَ أن يُظَنَّ خلافه أن يخبر أصحابه - ومن يراه - حقيقة ذلك الفعل؛ لينتفعوا، ولئلا يأثموا بظنهم السيئ. [2]

فدلّ ذلك على أنَّ تبيين العالِم إذا رآه أحدٌ في موطنٍ فيه ريبة له فوائد، منها:

الأولى : لأجل أن ينتفع ذلك الجاهل بما فعله هذا العالم .

الثانية : أن يحفَظَ العالِم عِرضه عن ألسِنةِ الناس.

الثالثة : لئلا ينفر عنه من يراه، ولا يستفيد من علمه بسبب ما رآه .

الرابعة: لئلا يأثم من يراه بوقوعه في الظن السيئ.

قال ابن الجوزي :رُوينا عن إبراهيم بن أدهم، أنَّ أصحابه كانوا يوماً يتمازحون ، فدق رجلٌ الباب، فأمرهم بالسكوت والسكون ، فقالوا له : تُعلِّمْنا الرياء ؟! فقال : إني أكره أن يُعصى الله تعالى فيكم. [3]

وهنا نفرِّق بين مسألتين:

مسألةِ الدين، ومسألةِ التديُّن.

فالأوّلُ بلا ثانٍ مَحجوب، والثاني بلا أوّلٍ مُبتدِع.

فمن حقق الأوّلَ دون الثاني، أي عنده دينٌ ،أي علم ولكنَّ علمه هذا لم يظهر في ديانته ولا معاملاته ، فهذا فيه باليهود، الذين قال اللهُ تبارك وتعالى عنهم : {مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا} [الجمعة: 5].

فقد فرَّقت الآيةُ بين أمرين: بين الحَملِ والتحمُّل ، {مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ} أي أُمِرُوا بحفظِها، فكانوا حفَظَةً بلا فَهم، بلا عمل، {ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ}.

وأمّا من حققَّ الثاني دون الأوّل ، فمُبتدِعٌ ، فمَن تديَّن بلا دينٍ ، أي بلا عِلم ، ففيه بالنصارى، { وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ} [الحديد: 27]

---

[1] انظر: شرح رسالة "آداب الدارس والمدرّس"(ص/52) لعبد الله الفوزان.
[2] انظر: رسالة آداب الدارس والمدرّس(ص/٣٦)
[3] انظر: تلبيس إبليس(ص/179)

فهم ترهَّبوا وتعبوا، ولكنّهم كانوا على بدعةٍ من القول، لذا قال اللهُ تبارك وتعالى عنها: {مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ}، أي لم نُوجبها عليهم، وإنّما الذي كُتِب عليهم أن يعبدوا الله تعالى على بصيرة ، والرهبانية شيء آخر.

يقول شعيب عليه السلام: {وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ} [هود: 88]،

فليس جَديراً بمعلِّم الناس الخير أن يقولَ قولًا للناس ويَعِظَهُم، ثم إذا رَقَبُوا أفعالَه، رأَوا خلافَ ما قال، وهذه من أشدّ الأمور التي تُسقِطُ الشيخ من أعين الناظرين ، أنّه إذا خرج على الناس قالَ قولًا، وحثَّهم على أمر، ثم إذا رَقَبُوا أفعالَه، لم يجدوا ذلك فيه.

لذا فإنَّ النبيَّ ﷺ لما نهى الناسَ عن الرّبا ،ووضع دِماء الجاهليّة، بدأ بالأقربين منه،فقال النبيُّ ﷺ " وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْثَرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ يُوضَعُ دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَإِنَّ كُلَّ رِبًا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَإِنَّ اللهَ قَضَى أَنَّ أَوَّلَ رِبًا يُوضَعُ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ" .[1]

وهذا يُعلِّمُكَ أنَّ المرءُ إذا حَمَلَ عِلمًا، أوأمر أو نهى، فأَولى به أن يبدأ بنفسِه، لئلّا يجعلَ عِرضَه عُرضة لألسِنةَ الناس، وعندها فلا يَلُومَنّ إلّا نفسَه.

قال المصنِّف:

" ويَنبغي تَعاهُد محفوظاتِ المتعلِّمين ومعلوماتهم بالإعادة والامتحان، والحثِّ على المذاكرة والمراجعة وتكرار الدرس، فإن التعلُّم بمنزلة الأرض، والدرس والمذاكرة والإعادة بمنزلة السُّقي لها، تتَعَهَّد المتحفِّظ ، وتُكرِّر لِيَثبُت ".

المصنِّف يُؤكِّد على هذا المعنى المهم ، الذي هو تعاهد المحفوظ ؛فكم ضاعت من علومٍ ومتونٍ من حِفظ الطالب لمَّا لم يتعاهد ذلك ، وقد كانت من سُنَّة السَّلف تعاهُد المحفوظات ، والشيخ السعدي رحمه الله صاحب هذه الرسالة، يحكي أنه كان في كل يوم بعد الفجر، يُراجِع القرآن والمتون في جلسة ثابتة لأربعين سنة مع قرين له.

ومسألة تَعاهُد المحفوظات مما أكدتْ عليه أدلة الشرع :

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ: إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ"[2].

الشاهد: قوله ﷺ :"وإن أطلقها ذهبت" ،فالنِّعمُ لا تثبت عند من لا يعرف قيمة ما يملك.

قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾، فإنَّ العلم هو ضيفٌ عزيزٌ ، وعِزّته في أنه لا يَثبُت إلّا عند من يَعرف قدْره ، أرأيتم لو أنَّ ضيفًا عزيزًا أتاك في بيتك فلم تحسن ضيافته ،هل سيبقي؟ وكذلك العلم والقرآن: ضيفٌ عزيز، فإن لم تُحسن ضيافته في صدرك رَحَل.

---

[1] أخرجه مسلم(1218)

[2] متفق عليه.

نقول: فإذا كان القرآن الذي أَخبَر به مَن أنزله فقال تعالى{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} وإذا كان مع تَيسيره لهو أشدَّ تَفَلُّتًا من الإبل، فكيف بغيره من علوم الشرع؟!

فالشاهد من ذلك:

أهمية مسألة المعاهدة والمراجعة، تعاهد العلم كما تتعاهد القلب ، فليست العبرة بما درسته، إنما العبرة بما أتقنته ، فأعِدْ ما تدرسه وكرِّره ، فإنْ كثرت عليك الدروس،فخذ هذه القاعدة :

"قلِّل المأخوذ، وأَحكِم المدروس".

قال الخطيب البغدادي: ولا يأخذ الطالبُ نفسَه بما لا يطيقه، بل يقتصر على اليسير الذي يضبطه ويُحكم حفظه ويُتقنه.[1]

وقال شعبة : كنتُ آتي قتادة فأسأله عن حديثيْن، فيحدِّثني، ثم يقول: أزيدك؟ فأقول: لا ؛ حتى أحفظهما وأُتقنهما.[2]

قال يونس بن يزيد :

قال لي ابنُ شهاب: يا يونس، لا تكابر العلم ؛ فإنَّ العلم أودية بأيِّها أخذتَ فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي ، ولا تأخذِ العلم جملةً ، فإنَّ من رام أَخْذَه جملةً ذهب عنه جملةً ، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي .[3]

وعلى المعلِّم أن يكون منتبهاً لحاله طلابه، فلا يُكثر عليهم فيصيبهم بالملل، بل عليه أن يراقب تركيزهم وإنصاتهم إليه ، وهناك من العلامات ما يُبيّن إقبال الطلاب على معلِّمهم، ومن ذلك إذا كانت أعينهم متوجّهة إليه ، لا تنحرف يميناً ولا شمالاً ، فهذه من علامات إقبالهم عليه ،وشغفهم إلى سماع كلامه.

وقد ترَّجم الإمام البخاري بَاب: مَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَالْعِلْمِ كَيْ لَا يَنْفِرُوا .

وعن أَبِي وَائِلٍ قَالَ: «كَانَ عَبْدُ اللهِ بنُ مسعود رضي الله عنه يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ؟

فقَالَ رضي الله عنه: أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَخَوَّلُنَا بِهَا؛ مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا ".[4]

---

[1] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (231/1)
[2] انظر: المصدر السابق(241/1)
[3] انظر: جامع بيان العلم وفضله (104/1)
[4] متفق عليه.
قوله :يتخولنا: يتعهدنا. (انظر: النهاية في غريب الحديث، مادة: خَوَلَ)، السآمة: الملل والضجر. (انظر: النهاية في غريب الحديث، مادة: سأم).

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:«حَدِّثِ القوم ما أقبلتْ عليك قلوبهم ، فإذا انصرفتْ قلوبهم فلا تحدّثهم ،قيل له : ما علامة ذلك؟ قال : إذا حَدَّقوك بأبصارهم ، فإذا تثاءبوا، واتكأ بعضهم على بعض، فقد انصرفتْ قلوبهم ، فلا تحدِّثهم.[1]

قال المبرِّد: المبرِّد يقول: الاستماع بالعين، فإذا رأيتَ عينَ من تحدّثه ناظرةً إليك فاعلم أنه يحسن الاستماع.[2]

ثم قال المصنِّف: " وكما أنَّ على المتعلم توقير معلِّمه، فكذلك أقرانه في التعلُّم، عليه توقيرهم واحترامهم ".

لا شك أنَّ الصحبة في طلب العلم تجمع حقوقًا كثيرة، والكلام عن حقوق الأقران في طريق الطلب مهمٌّ جدًا،ومن ذلك : الحبُّ في الله عزوجل، وأن يسعى كلُّ طالب إلى أن ينفع صاحبَه.

فلا يليق بطالب العلم أن يكتم علمًا تعلَّمه عن صاحبِه، لكي يستأثر به هو فقط ؛ فإنَ هذا من سُوء الخُلق، وعلامة بيِّنة على سوء النيّة وخبث الطوية ،أن تكتم علمًا تعلَّمتَه عن قرينٍ لك، خَشية أن يتعلَّمه، ولِتكون أنت المنفرد به.

كذلك أيضًا، ممَّا يجدر أن نُنبِّه عليه بين الطلَّاب: مسألة الحسد:

وهذا أمرٌ وارد ؛ فليس ببعيد على طالب العلم أن يمسَّه طائف من الشيطان ، ويأتيه منه نزغٌ فيحسد أخاه على علمٍ تَعَلَّمَهُ، أو فقهٍ تَفَقَّهَهُ ، أو مكانة حازها.

ولا شك أنَّ صفة الحسد صفة مذمومة ، بل هي من أخص شِيَم اليهود الذين حَسَدوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن اصطفاه الله تعالى على الناس كافة، وجعله من العرب ، وليس من بني إسرائيل، قال تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ} [النساء:٥٤].

وقال تعالى (بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ)(البقرة:90)

فقال جمهور المفسِّرين :

بغوا على محمدٍ صلى الله عليه وسلم وحسدوه ،وقالوا: إنما كانت الرسل من بني إسرائيل، فما بال هذا من بني إسماعيل؟ فحسدوه أن ينـزل الله تعالى من فضله على من يشاء من عباده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وقد يُبْتَلَى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوعٍ من الحسد لمن هداه الله تعالى بعلم نافع أو عملٍ صالحٍ، وهو خلق مذموم مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم.[3]

---

[1] انظر: الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (333/1)
[2] انظر: بهجة المجالس(44/1)
[3] انظر:اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 83)

ومن استقرء السيَرَ علِم أنَّ مثل هذا الحسد مما كان شائعاً بين الأقران في الطلب، حتى تناقلته أخبار العلماء القدامى ، حتى قال سلمة بن دينار الأعرج ،وهو يصف حال أهل زمانه:

صار هذا الزمان الرجل يعيب مَن فوقه ؛ ابتغاء أن يُنقطع منه ، حتى لا يرى الناسُ أنَّ له إليه حاجة، فهلك الناس عند ذلك. [1]

هذا كلام أبي حازم ، سلمة بن دينار الأعرج ، الذي توفي سنة 144 هـ ، فماذا سيقول لو رأى أهل زماننا؟!
وهذا علمٌ من الأعلام النبلاء ، وهو الإمام الشافعيَّ لم يسلمْ من الكلام في عِرضه ، فقال أحمد مدافعًا عن شيخه الشافعي: والله، ما رأينا منه إلَّا خيرًا، ثم قال أحمد لمن حوله:

اعلموا - رحمكم الله تعالى - أنَّ الرجل من أهل العلم إذا منحه الله تعالى شيئًا من العلم وحُرِمَه قرناؤُه وأشكاله، حسدوه ، فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم.[2]

محنة الحسد في حياة الإمام البخاري:

فالبخاري -رحمه الله- كان ذا مكانة عظيمة ،فكان رحمه الله تعالى ما أن يعقد مجالسَ التحديث ، إلَّا ويزدَحَمُ الناسُ على حضورها، فما من بلدة نزلها إلَّا وقد أذعن أهلها لفضله وعلمه ، حتى غار مِنْ وقْعِ ذلك بعض أهل زمانه ،حتى رموا الإمامَ البخاريَّ رضي الله عنه بفرية القول باللفظية، وتلك فرية خاطئة كاذبة ، هو منها بريء براءة الذئب من دم ابنِ يعقوب .[3]

وقد أجمل السبكي محصِّل ما وقع للإمام البخاري فقال:

" دع خرافات المؤرِّخين، واضرب صفحاً عن تمويهات الضَّالِّين،وكيف يُظن بالبخاري أنه يذهب إلى شيء في أقوال المعتزلة ، ولا يرتاب المنصف فى أنَّ هذا سببه آفة الحسد التي لم يسلم منها إلَّا أهل العصمة ".[4]

لقد ضاقت على الإمامَ البخاريَّ رضي الله عنه الأرضُ بما رحبت ، وضاقت عليه نفسُه ، حتى ملَّ الحياةَ وأهلها ،وتمنَّى لقاء الله تعالى .

قال عبد القدوس بن عبد الجبار:

سمعتُ الإمامَ البخاريَ ليلة من الليالي ، وقد فرغ من صلاة الليل يقول في دعائه:"اللهمَّ قد ضاقت عليَّ الأرضُ بما رحبتْ، فاقبضني إليك"، فما تم الشهر حتى قُبض.[5]

---

[1] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (276/2)وجامع بيان العلم(250/2)
[2] انظر: مناقب الشافعي(259/2)
[3] ولمزيد التفصيل في محنة الإمام البخاري التي عُرفت بمحنة اللفظية ،يراجع قاعدة" كلام الأقران يُطوى،ولا يُروى، إلا ببينة "، وهي قاعدة ذكرناها ضمن قواعد كتابنا "التحديث في تقريب قواعد علوم الحديث".
[4] انظر : بتصرّف يسير من "طبقات الشافعية" (230/2)
[5] انظر: هدي الساري(729/2)
إشكال وجوابه:
روي الشيخان عن أنسٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رسولُ الله - ﷺ -: " لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلاً، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَت الوَفَاةُ خَيراً لي"، فكيف يتمنى الإمام البخاري الموت ، ويدعو به؟ والجواب:=

إذن، فإنَّ الحسد شيءٌ مركوزٌ في الجِبِلَّة البشريَّة، من طبائع البشر، كما نصَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن رجب وغيرهما ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ما خَلا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ ، لَكِنَّ اللَّئِيمَ يُبْدِيهِ ، وَالْكَرِيمَ يُخْفِيهِ ". [1]

فإن قيل : وهل لهذا الداء العضال ، الذي هو الحسد، من دواء؟

نقول أولاً:

من أهم ما يُعالَج به هذا الداء البغيض هو أن يستقبح الحاسدُ حاله ، ويعلم أنه بلسان الحال معترضٌ على قسمة الله تعالى ، وحكمته في أرزاقه للعباد ، وعلى رأس هذه الأرزاق هو رزق العلم ، فكأنَّ لسان حال الحاسد يقول :" ربِّ ، لما أعطيتَ فلاناً وحرمتني"!

فإنَّ الطالب الحاسد لقرينه على علمٍ تعلَّمه أو منزلة حازها هو بلسان الحال يعترض على قَدَر الله تعالى وقسمته بين عباده ، قال تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ} [النساء:٥٤]

في الصحيحين من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

" مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ، وإنَّما أنا قاسِمٌ ، ويُعْطِي اللَّهُ تعالى ". [2]

فمناط الخيرية عند الله تعالى هو التفقّه في دين الله عزوجل ، وهذا التفقّه هو في أصله محض عطاء وفضل من الله تعالى (يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ)(البقرة:269)

والشاهد أنَّ كل من نازعه داء الحسد فليستحضر قول الله تعالى: {ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَٰلَتَهُ} [الأنعام: 124]، فإنَّ الطالب لو تأمّل هذه الآية ، لعلم أنَّ الله تعالى كما قضى بعلمه وحكمته أن يصطفي من يشاء من أنبيائه ورسله عليهم السلام ، فكذلك قضى بعلمه وحكمته في اصطفاء ورثة الأنبياء من العلماء وطلابهم المصطفين الأخيار.

=أنَّ محنة " اللفظية " التي وقعت للإمام البخاري في نيسابورلم تكن وحدها محل البلاء، بل قد استقبلته محنةٌ أخرى عندما عاد إلى بخارى ، وذلك عندما أرسل إليه والي بخارى يأمره أن يحمل إليه كتاب "الجامع" و"التاريخ" ليسمعهما من البخاري، فقال الإمام البخاري لرسول الوالي: "أنا لا أَذِلُّ العلمَ، ولا أَحْمِلُه إلى أبوابِ الناس، فإن كانت لكَ إلى شيءٍ منه حاجةٌ، فاحضُر في مسجدي، أو في داري" ، فكان ذلك سبب الوَحشة بينهما ، فلمَّا وقع هذا للإمام خشي على دينه، فتمنَّى الموت.
وقد جعل جمهور العلماء حديث النهي عن تمني الموت خاصًا بالمصائب التي يبتلى العبدُ بها في الدنيا، أمَّا إذا خشى ذهاب دينه، فيشرع له أن يدعو بالموت، ويدل عليه قول مريم (قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا)(مريم:23)
وقد عقد البخاري في "كتاب الفتن" بابًا لذلك ، فقال: "باب: لا تقوم الساعة حتى يُغبط أهلُ القبور"، ثم روى فيه حديث أبي هريرة مرفوعًا: " لا تقومُ الساعةُ حتى يمرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ، فيقولُ: يا ليتني مكانك".
قال ابن حجر في "الفتح" (13/75-76):
قال ابن بطَّال: تمني الموت عند ظهور الفتن إنما هو خوف ذهاب الدين بغلبة الباطل وأهله وظهور المعاصي والمنكر. انتهى.
وكذلك أجاب القرطبيُّ،وابن عبد البر وغيرُهُم.
وقد أثر عن جماعة من السلف أنهم تمنوا الموت خوف الفتنة في الدين، كما نص عليه النووي، وقد ورد هذا المعنى في الحديث القدسي المعروف، حديث الكفارات والدرجات، الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه:
"وإذا أردتَ بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون" أخرجه أحمد (1-368)، والترمذيُّ (3233) ،ولكنه لا يصح لانقطاعٍ في سنده ، ولاضطرابه، كما نص على ذلك الأئمة : فمن هؤلاء الإمام أحمد ، كما في "بيان تلبيس الجهمية" لابن تيمية (217/7) نقلاً عن "العلل" للأثرم ، والإمام الدارقطني كما في "العلل" (57/6) ، وابن خزيمة كما في التوحيد (546/2) ،والعقيلي كما في "الضعفاء الكبير" (156/3) ، فالاستدلال بهذا الحديث في هذه المسألة رائقٌ لو صحَّ الحديث.

[1] انظر: مجموع الفتاوى(125/10)وجامع العلوم والحكم ،شرح الحديث(35)

[2] متفق عليه.

قال النووي- وهو يذكر جملةً من أدواء طلاب العلم-:

ومنها الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس، وإن كانوا دونه بدرجات، وهذه أدواء وأمراض يُبتلى بها كثيرون من أصحاب الأنفس الخسيسات، وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أنَّ حكمة الله اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان؛ فلا يعترض على ما اقتضته الحكمة.[1]

لذا فمن أنفع أدوية الحسد الفكر بأنه اعتراض على الله تعالى في حكمته المقتضية تخصيص المحسود بالنعمة ، مع ما فيه من الغم وتعب القلب وتعذيبه بما لا ضرر فيه على المحسود.[2]

ولنا في راهبِ الأخدود أسوة حسنة :

فهذا هو الغلام المقدَّم ، الذي كان قد مضِى على تنسُّكِه أيامٌ معدودات ، ولكنَّ الله تعالى فتح عليه من الكرامات ما لم يُفتح لذلك الراهب ، الذي سبقه إلى الله تعالى عملاً وعلماً ، فإذ بهذا الغلام يأَخُذَ حَجَرًا فيقتل الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، وإذ به يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ ،وهنا يعلن الراهب بكل تجرّد وعرفان وإذعان أنَّ الغلام هو المراد في قدر الله تعالى ، المراد رفعةً ومكانةً وكرامةً ، (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ)

فقالها الراهب للغلام بكل تجرّد وإنصاف:"أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ". [3]

وكذلك مما يُعالج به داء الحسد:

أنَّ الحاسد إذا نازعته نفسه نحو نزغ حسدٍ لأخيه وقرينه في الطلب فعَلَيْه أن يدعو له كثيرًا، فهذا من الأمور التي تُذْهِبُ الحَسَدَ عن قلب الحاسد.

كما قال تعالى (وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ)(الحشر :10)

يدعو له بالتوفيق والسداد، يدعو له بالرشاد، ويُجَاهِدُ نفسه بالدعاء أن يُذْهِبَ اللهُ تعالى عنه كل أدواء القلوب .

فعلى الطالب أن يجاهِد نفسه في دفع هذا الداء ؛فإنَّ الحاسد من أسوء الناس خلقاً ، وأكثرهم إلى الله تعالى بُغضاً ، فليس الحسد خلقاً من أخلاق أهل العلم قط ، قال أبو حازم سلمة بن دينار:

لا يكون العالم عالماً حتى يكون فيه ثلاث خصال: لا يحقر من دونه في العلم، ولا يحسد من فوقه، ولا يأخذ على علمه دنيا.[4]

---

[1] انظر: مقدمة المجموع(28/1)

[2] انظر:تذكرة السامع والمتكلّم(ص/٢٦)

[3] حديث غلام الأخدود حديث طويل أخرجه:مسلم (3005)، وقد ذكرنا هنا طرفاً منه بما يناسب الشاهد المطلوب.
الأكمه: الذي يولد أعمى ، والبرص: داء معروف، نسأل الله العافية منه ومن كل داء، وهو بياض يقع في الجسد.
انظر: النهاية (201/4) و"اللسان"(388/1)

[4] انظر: الآداب الشرعية(45/2)وتهذيب الكمال(276/11)

مسألة في الفَرق بين الحسد، والغِبطةُ :

وأما مسألة الحسد : فهذه صفة مذمومةٌ بكلِّ حال، كما ذكرنا، وهذه من صفات اليهود:

{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ} [النساء:٥٤].

فطالب العلم الذي وضعه الله تعالى في هذا الطريق ،شريف القدر والمنزلة لا يليقُ به أن يحمل في صدره حسداً أو غلاً لرفيق دربه .

أما الغِبطةُ :

فهذا أمر محمود ، فإذا وجدتَ علمًا عند قرينِك الذي سبقك، أو حتى كان مُساويًا لك في الطلب، فتغبطه على ذلك ، وتغِير منه غيرةً تحملك على منافسته في تحصيل العلم النافع، فهذه غِبطةٌ محمودة ، تتمنى فيها أن تُرزق العلم الذي رأيته عند غيرك ،دون أن تتمنى زواله منه.

قال حمَّاد بن أسامة: إني لأغارُ على الحديثِ كما يُغارُ على الجاريةِ الحسناء.[1]

ثم قال المُصَنِّف:

" ولهذا ينبغي ألا يدعَ مُمْكنًا يقدر عليه من نفعٍ، ما يقدر على نفعه منهم، من تعليمِه ما يَجهل،والبحث معه، والتعاون على الخير،، وينبغي أن يكون اجتماعُهم في كلِّ وقتٍ غنيمةً.

دائمًا أحسِن الظنَّ بربك، أنك إذا علَّمتَ غيرك، فهذا زكاة العلم، فإنَّ زكاةُ العلمِ إنفاقُهُ وتعليمه، فهذا تثبيتٌ للعلم، أن تُعَلِّم غيرك.

ثم قال المصنِّف:

" اعلَمْ أن القَناعةَ باليَسيرِ من الرِّزقِ، والاقتصادَ في أمرِ المعيشةِ، مَطلوبٌ من كلِّ أحد، لا سيما المُشتغلون بالعلم، فإنّه كالمتعين عليهم ؛ لأنّ العلمَ وظيفةُ العُمر، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية حصل النقص بسبب ذلك. ".

فالتحقيقُ لهذه المعادلة من الأمورِ المُهِمّة، تحقيقُ المعادلةِ والموازنةِ بين مشاغلِ الحياةِ الدنيا، وبين طلب العلم ، وإنّ طالبَ العلم لا بد أن يحقق المعادلة في هذا الباب:

فلا ينبغي له أن يترُكَ أمرَ معاشِه بالكليّة، فيتكفّفُ الناسَ بالشكاية وبلسان الحال والمقال ، حتى يجعلَ رأسَ كفايته صَدَقاتٍ يجمعها من هاهنا وهاهنا ، فتكونُ يدُه هي اليد السُّفلى، ومثل هذا لا يرضاه طالبُ العلم صاحب النفس الزكيّة ، والهمة العليّة.

وأيضًا في الجانبِ الآخر، لا ينكَبُّ على طلب الحياةِ الدنيا ، فينجرف في غيابات المعايش ،فتأخذه الدنيا بحبائلها وشِراكهاعن طريق الطلب.

لا هذا ولا ذاك، بل لا بد من تحقيق المُوازنةِ بين الأمرين ، وهذه المعادلةُ والموازنةُ تتضحُ من قولِ الناصحين لقارون{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا}**(القصص:77)**

[1] أخرجه الخطيب في "الجامع" (231/2)

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ}، هذا سَعْيُك في تحصيل ميراث النبوة ، وهذه قضيّتك في طلبِ العلم وتحصيلِ العِلم الشرعي ، {وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا}،في كسب معاشك ، وتحصيل كفايتك ، ليطمن قلبك ؛ فإنَّ النفس إذا حازت رزقها اطمأنت، فهذا هو الميزان في هذه المعادلة.

ومن أجملِ ما يكونُ في هذا المقام أن تتذكر بلاغة الدرس المستقى في قول طالوتَ ، لما مرّوا على النهر، فقال لجنوده (إنّ الله مُبتليكم بنهرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ} [البقرة:٢٥٩].

وهكذا الأمرُ؛ فإنَّ هذا مثالٌ حيٌّ لهذه الحياةِ الدنيا ، فحالها كحال هذا النهر ، قد ابتلانا الله تعالى بها ، فمن الناسِ مَن غرق في نهرِ الحياةِ ، حتى صارتِ الدنيا هي رأسُ مالِه، ينام عليها ويقوم عليها، يوالي عليها ، ويعادي عليها ، {إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ}، فهذه من دلائلِ المُوازنةِ بين أمرِ الحياةِ الدنيا، وبين أمرِ طلبِ العلم، فليست الدنيا رجساً من عمل الشيطان ، وليست هي صنم العجوة الذي نعظّمه .

وهكذا كانت طريقة الصحابة رضي الله عنهم، **"فبهداهم اقتده":**

فما كانوا يوماً عالةً على أحدٍ ، وما جلسوا في المساجد يطلبون الصدقات ويتكفّفون الناس، لا، بل كانوا عمَّال أنفسهم ، يعملون بأيديهم ويكسبون لأنفسهم.

فهذا عمرُ الفاروق رضي الله عنه، كان له صاحبٌ أنصاري ، وهو عِتبان بن مالك رضي الله عنه ، فكانوا يتناوبون معاً في الطلب، ينزل عمرُ رضي الله عنه إلى النبيّ ﷺ يومًا، يسمع منه ما جَدَّ من أمور الوحي، وفي اليوم الثاني يعمل، وينزل صاحبُه ، فيأتى عمرَ رضي الله عنه فيخبره بما جدَّ من الأحاديث.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ:

" كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم؛ يَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ" .[1]

قال ابن حجر معلّقاً :

وفيه أنَّ الطالب لا يغفل عن النظر في أمر معاشه ؛ ليستعين على طلب العلم وغيره ، مع أخذه بالحزم في السؤال عمَّا يفوته يوم غيبته، لمَا عُلِم من حال عمر رضي الله عنه أنه كان يتعانى التجارة إذ ذاك.[2]

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها:كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عُمَّالَ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ يَكُونُ لَهُمْ أَرْوَاحٌ، فَقِيلَ لَهُمْ: لَوِ اغْتَسَلْتُمْ" .[3]

---

[1] متفق عليه ، وبوَّب له البخاري باب: "بَابُ التَّنَاوُبِ فِي الْعِلْمِ".

[2] انظر: فتح الباري(186/1)

[3] أخرجه البخاري(1965)، وترجم له :بَاب: كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ.

(عمَّال أنفسهم) يعملون بأيديهم ويكسبون لأنفسهم. (أرواح) جمع ريح، بسبب تعرقهم. (لو اغتسلتم) لحضور الجمعة.

قال عبد الرحيم بن سليمان الرازي:كنا عند سفيان الثوري، فكان إذا أتاه الرجل يطلب العلم ، سأله : هل لك وجه معيشة ؟ فإن أخبره أنه في كفاية أمره بطلب العلم، وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعاش .[1]

في القصة عبرة لكل طالب علم:

الإمام العَلَم الشيخ الألباني رحمة الله عليه، يعمل في مهنة تصليح الساعات، فيحكي أنه كان إذا أخذ ما يكفيه ويكفي أهله لقوت يومه ، أغلق دكانه ، وذهب إلى المكتبة ليحصَّل العلم.

يقول الشيخ الألباني رحمه الله:

"من توفيق الله تعالى وفضله عليَّ أن وجَّهني منذ أول شبابي إلى تعلُّم هذه المهنة؛ ذلك لأنها حرة لا تتعارض مع جهودي في علم السنة، فقد أعطيتُ لها من وقتي كل يوم- ما عدا الثلاثاء والجمعة- ثلاث ساعات زمنية فقط، وهذا يمكنني من الحصول على القدر الضروري لي ولعيالي وأطفالي على طريقة الكفاف طبعًا ؛ فإنَّ من دعائه عليه الصلاة والسلام:

"اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا"؛ رواه الشيخان، وسائر الوقت أصرفه في سبيل طلب العلم والتأليف ودراسة كتب الحديث.[2]

والقوت: هو ما يَسُدُّ الرَّمَقَ ويُحقِّقُ الكِفاية.

ومن تناقُضِ المشاهَد في هذا الباب:

أنَّ الطالب يُضيّعُ الساعاتِ والأوقات في لا شيء ، ثم إذا نُصِحَ أن يعمل ليتكسَّب ما يحفظ به وجهه عن سؤال الناس بلسان الحال و المقال، تحجَّج أنه منشغل بطلب العلم!

وختامُ هذه المسألة حاصله : "اصْدق الله تعالى يُصْدقك"، وكن صادقًا مع الله تعالى تأتيك الدنيا وهي راغِمَةٌ.

ولا بد من التنبيه على أمر مهم :

بعض طلبة العلم قد يفهمُ القضيّةَ فهماً مغلوطاً ؛ حين تراه يُريد أن يبدأ من حيثُ انتهى الآخرون ، فيرى شيخه – مثلاً -قد منَّ الله تعالى عليه بالتفرّغ للعلم ،فيُريد أن يكونَ مثلَه، ولكنه لا يعلم أنَّ هذا الشيخَ بدأ بالموازنةِ بين الأمرين، فلمَّا رأى اللهُ تعالى منه الصدقَ، واطّلعَ اللهُ تعالى على قلبِه منَّ تعالى عليه بالتفرّغ لهذا الطريق.

فاعلَمْ أنَّ الله تعالى بصير شكورٌ ، يَشكر سَعْيَك وحِرصَك على الطلب، ومن شُكرِه لك:

أنه إذا رأى منك إقبالًا وفهمًا وصدقًا في رحلة الطلب، صيَّرَ حياتَك كلّها له، لأنه بصيرٌ حكيمٌ شَكور، {إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّن مَّآ أُخِذَ مِنكُمْ} [الأنفال:٧٠].

---

[1] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(98/1)

[2] يراجع في ذلك: كتاب (الألباني: حياته وآثاره وثناء العلماء عليه) للشيخ محمد الشيباني.، وكتاب (حياة الألباني)، للسدحان.

فإذا حقّقتَ هذه المعادلة، ورأى اللهُ تعالى منك الصدقَ في إرادة ما عنده ، وكنت رجلاً ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه منَّ اللهُ تعالى عليكَ بمن يكفيك همَّ دنياك.

فمن أراد اللهَ تعالى حقاً ، أراده الله تعالى له، ومن باع دنياه ، اشتراه الله...

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:
«مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ».[1]

وعن أبي هُريرةَ،رضي الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

"ثلاثةٌ حَقٌّ على اللهِ تعالى عَوْنُهُمْ: المُجاهِدُ في سَبِيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأدَاءَ، والنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ" .[2] وطلب العلم هو ضربٌ من الجهاد في سبيل الله تعالى، بل هو مقدَّمٌ عليه.

فإنْ كان في القلبِ صِدقٌ فإنَّ الله تعالى سَيَكفيكَ كلَّ هَمٍّ، ولكن فقط: كُنْ مع ربك عزوجل صادقًا! ثق وكن ذا يقين في كفاية الله تعالى لعباده الصادقين ،لا تُعامِلْ ربَّك بالتجربة!

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ:

يروي لنا أَبَو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه كيف هانت عليه نفسه في الله عزوجل فيَقُولُ:

آللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو الْقَاسِمِ صلى الله عليه وسلم فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي.[3]

ثم أتته الدنيا وهي راغِمَةٌ ؛ فقد تزوَّج أبو هريرة رضي الله عنه من خيرة النساء مكانة ومالاً ، قال رضي الله عنه:

كنتُ أجيراً لبُسرة بنتِ غزوانَ بعُقبةِ رجلي، وطعام بطني، وكانوا إذا ركبوا سُقت بهم، وإذا نزلوا خدمتهم، فَزَوَّجَنِيْهَا اللهُ تعالى، فَهِيَ امْرَأتِي .[4]

ثم قال المُصنّف:

" ومن آدابِ العالِمِ والمُتعلِّم: النُّصْحُ، وبَثُّ العلومِ النافعةِ بِحَسَبِ الإمكان، حتى لو تَعلَّم الإنسانُ مسألةً واحدةً، وبَثَّها، كان بذلك من بركةِ العلم، لأنَّ من ثمراتِ العلم أن يأخُذَهُ الناسُ عنك، "

فمَن نشر ما تعلَّمه وبَثَّ علمَه بين الناس كانت له الأجور المباركة التي لا يعلم مداها ومدادها إلَّا الله تعالى؛ لأنها لا تقف على قدْر ما عاشه المعلِّمُ من سنوات عمره ، بل تجري له حتى بعد

---

[1] أخرجه الترمذي(2465)، وانظر: صحيح الترغيب(3169)
[2] ، أخرجه أحمد(7416)،والترمذي(175)وحسّنه الترمذي، وصححه ابن حبان (4030)وابن العربي في "عارضة الأحوذي"(5/3).
[3] أخرجه البخاري(6452)
[4] انظر: سير أعلام النبلاء(612/2)، وحلية الأولياء(380/1)

موته ، فهي تجارته الحقيقية، وهي من عمله وآثاره، كما قال الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ} [يس: 12]."

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

"لا تعلَّموا العلم لتصرفوا به وجوهَ النَّاس إليكم، وابتغوا بقولكم ما عِند الله تعالى؛ فإنَّه يدوم ويبقى، وينفد ما سواه " .

فما كان لله تعالى دام واتصل ، وما كان للبشر انقطع واندثر (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ)

فنشرُ العلم لا يُقَلِّلُه، بل يَزِيدُه بركةً، كما أنَّ المالَ لا يَنقُصُ بالصَّدَقة، فالعلمُ كذلك لا يَنقُصُ بالتعليم والإنفاق، بل يزداد ويزكو.

قال ابن حزم: الباخل بِالْعلمِ ألوم من الباخل بِالْمَالِ لِأَن الباخل بِالْمَالِ أشْفق من فنَاء مَا بِيَدِهِ والباخل بِالْعلمِ بخل بِمَا لَا يفنى على النَّفَقَة وَلَا يُفَارِقهُ مَعَ الْبَذْل. [1]

قال ابن المبارك : من بخل بالعلم ابتلي بثلاث، إما موت فيذهب علمه، وإما ينسى، وإما يصحب فيذهب علمه ، أو يبتلى بالسلطان ". [2]

قال ابنُ حِبَّان:

وإذا رُزِق من العلم الحظ لا يبخل بالإفادة ، لأنَّ أول بركة العلم الإفادة ، وما رأيتُ أحداً قط بخل بالعلم إلَّا لم يُنتفع بعلمه ، وكما لا ينتفع بالماء الساكن تحت الأرض مَا لم ينبع ، ولا بالذهب الأحمر مَا لم يُستخرج من معدنه ، ولا باللؤلؤ النفيس مَا لم يخرج من بحره ، كذلك لا يُنتفع بالعلم مَا دام مكنوناً لا يُنشر ولا يُفاد . [3]

فطالب العلم جواد كريم ، سخي العطاء ،لا يبخل بإفادة أقرانه ورفقاء دربه ومعاونتهم على فهم ما أغلق عليهم ، أو إدراك ما فاتهم؛ لعموم قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:2].

أي: ليعن بعضكم بعضًا على البر. والبر: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين ... وكلُّ خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها. [4]

ومن الفضائل في حق طالب العلم:

---

[1] انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس(ص/33)
[2] انظر: حلية الأولياء(165/8)
[3] انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء(ص/40)
[4] تيسير الكريم الرحمن ص (219) بتصرف يسير، ولمزيد بيان ، انظر: " مدخل إلى علوم الشريعة"، د. عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل(ص/39)

أن يسعى في إيصال ما تعلَّمه لزملائه، ويجتهد في تبليغهم، وألا يَضِن عليهم بما عنده ؛ فإنَّ الضَّنَّ بما عنده والبخل فيه علامة الأنانية ، ودليل على ضعف الوازع الإيماني؛ فإنَّ مقتضى الإيمان والأخوة أن يُحبَ لأخيه ما يحب لنفسه؛ لِمَا رواه أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». [1]

إنَّ نشر العلم حياةٌ لك بعد الحياة، فمن الناس من يعيش في هذه الدنيا ويموت، فتنتهي حياتُه عند أجله، أمَّا طالب العلم الباذل له، فإنَّ نشره للعلم حياةٌ له بعد وفاته، كما ورد في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ:

" إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ". [2]

ثم قال المصنِّف:

" ومن أهمِّ ما يتعيَّن: السعيُ في جمع كلمةِ المعلِّمين والمتعلِّمين، وتأليف القلوب على ذلك، وحسم مادةِ الشرِّ والعداوة والبغضاء بينهم "..

لا شك أنَّه قد بات واضحًا أنَّ نشر الألفة بين المسلمين، وبين علمائهم، وبين طلاب العلم؛ أمرٌ نحتاج إليه، ونحتاج إلى التأكيد عليه في زمنٍ نرى فيه مَن يسعى في البغضاء ونشر العداوة بين العلماء.

والعلَّة ليست في العلماء أنفسهم، فلهم الحظ الوافر والقدْر السابغ من القلوب الصافية النقية ، ولكنَّ العلَّة في نفرٍ ممن يسعون دوماً إلى فساد ذات البّين، مِمَّن يتناقلون الكلام من شيخ لآخر ؛ حيث ترى هذا الطالب الذي في قلبه مرض يفعل ذلك رجاء أن يكون له حظوة عند شيخه ، فتراه يتناقل الكلام ويزيد على الكلمة من الصدق مائة كذبة ، فيُؤجِّج الفتن، ويُطلق الكلام لإحداث الفُرقة والبغضاء ، وهذا في حقيقته ليس طالب علم ،بل هو طالب سوء، وطالب فتنة.

قال تعالى :(وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ)(القلم10-11)

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم قَالَ:

" أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ ". [3]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: « مَرَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا

---

[1] متفق عليه.
[2] أخرجه مسلم(1631)
قوله ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله) :
قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدد الثواب له، إلَّا في هذه الأشياء الثلاثة. لكونه كان سببها؛ فإنَّ الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف.
[3] أخرجه مسلم(2606)

يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، قَالَ: فَدَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ، ثُمَّ غَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِدًا وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا، ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا ».[1]

فنقول:

إنَّ من أعظم أسباب الفتنة في زماننا، ومن أسباب وقوع المعارك والمخاصمات بين أهل العلم هو تناقل الكلام، فكم من حروبٍ أصلها وأساسها كلمةٌ نُقِلت، لذلك فهذا مِن إفساد ذات البين،

فإذا كان هذا الأمرُ محرَّمًا بين عامَّة الناس، فكيف بوقوع ذلك بين العلماء؟!

هذه هي «إفساد ذات البين» التي سمَّاها النبيُّ ﷺ "الحالقة"، لا تحلق الشعر،

ويا ليتها كانت تحلق الشعر فقط ؛ فإنَّ الشعر يوماً سيعود ، أما سَلامة القلب ،فهي كالماء العذب الصافي إذا تكدَّر فأنَّى له يعود صافياً ؟!

فلن يعود صافياً حَتّى تَعودَ بَياضاً جُؤنَةُ القَارِ.[2]

هذا هو الداء ، وأما الدواء :

فإنَّ المخرج من ذلك كلِّه هي عبادةٌ من أعظم العبادات، ألا وهي: إحسان الظن، أن تُحسِن الظنَّ بأخيك ،فإذا ما أتاك سفير إبليس ينقل إليك كلمةَ سوء عن أخيك فعليك أن تُحسِن الظنَّ بأخيك أو معلِّمك ، فتحملها على أحسن المحامل، وأن تلتمس له سبعين عذرًا.

وهناك حديثٌ مشهور، لكنه لا يصح: "التمس لأخيك سبعين عذرًا"، فهذا لا أصل له.

وإنما المروي في هذا المعنى بسند صحيح هو ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ، فَصَمَتَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ، قَالَ: «اعْفُوا عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً» ".[3]

فالشاهد من ذلك: أنَّ المعنى صحيح؛ أن تُحسِن الظنَّ بأخيك .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

"لا تظُنَّ بكلمةٍ صدرت من أخيك شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا".[4]

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: "إنِّي لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير ممَّن قال الله تعالى فيهم: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}".

---

[1] متفق عليه.

[2] الجُؤنَة :هي سلة أو وعاء صغير مُغطى بالجلد، كان يستخدمه العطَّارون لحفظ الطيب والبخور، تُعد "جؤنة" كلمة عربية تعني الظرف أو الحقيبة التي تُحفظ فيها الطيب.

[3] رواه أبو داود(5164)والترمذي رقم (1950) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب،وفي بعض نسخ الترمذي: "حسن صحيح".

[4] أخرجه ابن عدي في " الكامل"(479/8) ترجمة يعقوب بن إسحاق الأنصاري ، والبيهقي في "شعب الإيمان"(323/6) ، وابن حبان في "روضة العقلاء"(ص/90)، وفي سنده ضعف.

اللهم ارزقنا حبَّك، وحبَّ مَن يُحبُّك، وحبَّ العمل الذي يُقرِّبنا إلى حُبِّك، وهَبْ لنا مِن لدُنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

وصلى الله على النبيِّ، وعلى آله وصحبه وسلَّم. تم بحمد الله.

الفهرس

مقدِّمة عن فضل طلب العلم الشرعي 2

وصية لطالب العلم بين يدي الرسالة..... 6

رسالة هذه الرسالة..... 10

أهم المصنَّفات في باب آداب الطلب 11

أهمية الإخلاص، بين "التأسيس والتأكيد"..... 13

أصناف الناس في باب النيّات..... 14

ماذا ينتوي طالب العلم ؟..... 18

زكاة العلم العمل به 21

تعليمك غيرك زكاةٌ لعلمك 23

كل نص في مدح العلم فهو علم الشرع..... 25

الفرق بين الشرك في النيات ، والتشريك في العمل 26

ذكر بعض علامات إخلاص طالب العلم 27

طالب العلم يطلب العلم ولو ممن هو دونه..... 28

عدم تزكية النفس 30

طالبَ العلم بين التخلِّي والتحلِّي 32

قبول الحق من كل من جاء به 32

الاعتراف بالحق فريضة..... 34

ذكر أركان العلم الأربعة..... 37

سنة المذاكرة عند السلف..... 40

وللحفظ سبلٌ تعين عليه 42

الفرق بين البحث والمناظرة:..... 44

تكرار مسائل العلم عند السلف..... 46

قواعد مهمة لطلاب العلم..... 48
من كان شيخُه كتابَه ، غلب خطؤه صوابَه 51
البداءة بالأهم فالمهم من العلوم الشرعية 56
القرآن في حياة السلف..... 58
مراعاة المعلِّم لأحوال المتعلَّمين..... 60
الفرق بين الدرس المعلوماتي و الدرس المنهجي..... 62
صور من التدرج في الغلوم الشرعية..... 63
صبرُ الطالبِ على تحصيل العِلم..... 68
صبر الطالب على معلِّمه 71
صبر المعلِّم على المتعلِّم 73
الطلاب حياةٌ للمعلِّم بعد موته 76
وهكذا عاقبة الإخلاص..... 78
التنوّع في طرق التدريس هدي نبوي 81
وربَّ كلمةٍ صنعتْ نَجماً 83
أهمية التزكية في طريق الطلب..... 87
كيف يزكّي طالب العلم نفسه؟..... 88
الرحلة في طلب العلم..... 90
آدابٌ في توقير وإحترام المعلِّم 92
إذا أتحفه المعلّم فائدة فلا يُظهر أنّه عرفها من قبل..... 96
العلم خزائن يفتحها حسن السؤال..... 97
أدب مراجعة المعلِّم حال خطئه 98
ليس عيباً أن تقول لما لا تعلم "الله أعلم"..... 100
كيف التخلّص من ثقل" لا أدري"؟..... 102

ذم التعصب لأقوال الرجال 103
الفرق بين الولاء والوفاء في حق الشيخ..... 104
حفَظَ العِرض عن ألسِنةِ الناس مقصود شرعي..... 107
الفرق بين مسألةِ الدين، ومسألةِ التديُّن..... 108
قلِّل المأخوذ ، وأحَكِم المدروس..... 110
آداب لا بد منها بين الأقران 111
محنة الحسد في حياة الإمام البخاري..... 112
طالب العلم والموازنة بين الاقتصاد في المعيشةِ والانشغال بطلبها 115
ذم البخل بالعلم..... 118
تأليف القلوب بين أهل العلم..... 120